اثنتا عشرة امـرأة

يوسف السباعي

كتب عربى
(شــراء)
BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

رقم التسجيل ٦١١٥٨١

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

مقدمة

أشد ما يدهشني .. هؤلاء الذين يسمون أنفسهم أعداء المرأة . والذين يحاولون أن يصفوها بصفات الشر والسوء . ولست أحاول بقولي هذا أن أدافع عن المرأة .. فانه يدهشني أيضـــا اكثر من هؤلاء .. أولئك الذين ينصبون أنفسهم للدفاع عن المرأة ، ويحاولون تبرئتها من كل شر وسوء .

يدهشني من هؤلاء وهؤلاء ، محاولتهم جمع النساء فى صفة من الصفات .. سواء كانت حميدة أو شريرة .. فلست أرى هناك صفة واحدة نستطيع أن نشرك فيها النساء ... فهن أنواع متعددة وأصناف متباينة منهن الطيب ومنهن الخبيث . وفيهن الحسن وفيهن القبيـــح . وفيهن وفيهن .. من كل ما يمكن أن يخطـــر على بال انسان ، ولست أظن أن هناك ما نستطيع أن نجمعهن به سوى انهن اناث كغيرهن من اناث الحيوانات والطيـــور والحشرات . اما أن نقول أن المرأة ملاك رحيم .. أو أن نقول انها شيطان رجيم . فهذا هو السخف بعينـــه . بل ان مجرد وصفنا اياها بانهـــا « الجنس اللطيف » .. وصف غير ســـــديد .. أو هو من قبيل المبـــالغة أو المجاملة .. فانى أعرف نســـاء .. لو قلت عن احداهن انهـــا من « الجنس اللطيف » لما كان قولى الا سخرية وتهكما .. أو كان من قبيل مناداة الشيء بضده .. كما نقول على الزفت « بياض » .

ولقد حاولت فى كتابى هذا أن اكتب عن المرأة بمختلف انواعها ،

وأن أعرض بعض صورها ·· مستعينا فى ذلك بطريقة القصة ، وهى كما أعتقد طريقة فى الكتابة مستساغة ، فليس أسهل على القارىء من تناول القصة والاقبال عليها ·· فالقصة أشبه ما تكون ببرشامة يستطيع أن يضع فيهـــا الكاتب افكاره وآراءه ، ويســـهل لقارئه بواسطتها ابتلاعها ، دون أن يحس منها ضيقا ولا مرارة · كما أن القصة لا تزيد عن حدوته قد خلت من الأفكار لن يكون لها تأثير فى نفس القارىء أكثر من تأثير برشامة فارغة ·

وعندما جلست لأكتب مقدمة الكتاب حاولت أن أحدد قيمة المرأة فى حياتنا فوجدتها أشبه بالوقود الذى يحرك الرجل ، والذى يدفعه الى الحركة والى الحياة ·· والنساء يختلفن كما يختلف الوقود ·· فأنواع الوقود التى تحرك الآلات تختلف فى قدرتها وفى نوعها ·· فهى تختلف بين بترول وفحم وخشب وبنزين احمـــر وبنزين أبيض وزيت وسخ ، وكذلك النساء يتفـــاوتن فى أنواعهن وفى تأثيرهن ، وقدرتهن على تحريك الآلات الآدمية ·· وكما أن الوقود قد ينتج عنه انفجـــار الآلات أو احتراقها ·· فكذلك النســـاء قد يكون تأثيرهن الحرق أو التحطيم ·

وعلى ذلك ، فلا أظن أن الحياة يمكن أن تصبح حياة ·· وأن الرجل يمكنه أن يكون لديه أمل أو مطمع ·· لو خلت الدنيــــا من النساء ·· وليس هناك من ينكر أنه ما من مطمح للرجل فى هـــذه الحياة ، الا كانت الرغبة الدافعة اليه ·· هى ارضاء المرأة ·· مهما حاول الرجل انكار ذلك ·

وقد كتبت ما كتبت عن النساء ، وحاولت تشريحهن وتحليلهن ، ولقد يبدو من كتابتى عنهن أننى قد فهمتهن وألمت بخفاياهن ، وأننى قد درستهن دراسة تامة ·· فعرفت المرأة الغيرى ، والمرأة الضالة ، والمرأة الخاسرة ، والمرأة الثكلى ·· أجل قد يبدو من كتابتى عنهن

أننى قد أصبحت خبيرا بأمورهن وقد يكون هذا هو ما دفع بعض القراء الى أن يعرضـــوا على مشاكلهم ويطلبوا منى النصـــح والعون ..

ولكنى مع كل ذلك .. ورغم كل ما كتبت لا أستطيع الا أن أعترف أننى عاجز أمامهن ، وأنى ما استطعت فهمهن بعـد ، وأنى مازلت حيالهن كطفل غرير . فما وجهت الى نظرة من عين ساحرة الا تركتنى اتخبط ، وما مست يدى يد ناعمة الا جعلتنى أرتجف ، وما خلوت بوجه فاتن الا وجدتنى كصبية المدارس .. بى شوق الى أن أحب وأن أحب ، ويتملكنى الخجل من نفسى ، ولا أملك الا ان أوجه اللوم الى قلبى الذى لا أظن الا أن الشاعر قد عناه بقوله :

قلبى الى ما ضرنى ســـاعى
يكثر أحـــزانى وأوجـــاعى
كيف احتراسى من عـدوى اذا
كان عـــدوى بين أضـــلاعى

ذلك القلب الخافق بين الضـــلوع .. المترنح فى الحنـــايا .. فأقول له :

« آه لو خلا منك الصدر .. لاسترحت من طمعك ومن لهفتك ، ولملكت زمام نفسىَ وأضحى بيدى الأمر .. متى تهدأ وتستقر ؟ . متى تطفأ غلتك ويشبع نهمك ؟ . متى تشيخ ومتى يصـيبك الوهن فلا تعود تهفو كلما مر بك ثغــر باسم أو عين ســـاحرة ؟ متى .. متى .. لقد كللت منك وما كللت أنت » .

ويخيل الى أنى أسمع بين الدقات والخفقات :

« لن تطفأ غلتى حتى يكف نبضى ، وأكف عن الحياة » .

يوسف السباعى

امرأة صابرة

انطلق بنا صاحبى بعربته فى شارع فؤاد متجها الى الزمالك ، وكانت الساعة التاسعة مساء ، وقد خرجنا من احدى دور السينما ، ودهشت من صاحبى وخيل الى أن ذهنه قد شرد به فأخطأ الطريق ، اذ كان علينا أن نعـود أدراجنا ، بعـد ذلك ، الى مصر الجديدة ، وصحت به متسائلا :

ـ الى أين ؟

ـ الى أنجه هانم ٠

ـ ومن تكون أنجه هانم ؟

ـ سيدة تركية لطيفة ستعجبك كثيرا ٠٠٠

ـ وفيم ذهابنا اليها ؟ !

ـ لنأكل عاشورة ٠٠ فقد دعتنى لتناولها ، ولا أظنها الا مرحبة بوجودك معى ٠

ووقفت العربة ٠٠ ودلفنا الى الدار ٠٠ دار دل مظهرها على مدى ما يستمتع به أهلها من ثراء وسعة من العيش ٠٠ ولقيت المرأة ٠٠ بين الشباب والكهولة ٠٠ لم تستطع السـنون أن تمحو رونق

شبابها أو تذبل نضرته ·· وأحسست بنفسها رقة طبيعية غير مصطنعة ، وبحديثها عذوبة غير متكلفة ·

وعندما غادرنا الدار علمت من صاحبى أن المرأة أرملة طبيب معروف لم يطل العهد على وفاته ، وأنها تعيش فى الدار وحيدة مع طفلتها ·· وسمعت من صاحبى ثناء عطرا عليها ، ومديحا فى خلقها وفى سمو نفسها ·

وتكررت زيارتى للسيدة مع صاحبى بضع مرات ·· دون أن أعرف بالضبط سبب صلته بها ·· أو أحدد مدى علاقته معها ·· فقد كنت أشك كثيرا فى دعواه أنه كان صديق زوجها ·· اذ لم اسمع بهذه الصداقة من قبل ·· حتى فوجئت ذات يوم بمعرفتى خبر زواجه بها ·· اقول انى فوجئت لأنه لم يخطر لى ببال قط أن صاحبى هذا سيتزوج لأنى أعرفه مبغضا للزواج معرضا عنه ، حتى لقد جاوزت به السن مرحلة الشباب دون أن يفكر فيه ، بل كان يبدو لى انه قد عزم على أن يقضى ما تبقى من عمره « أعزب » ، وأنه قد صمم على الا يتيح الفرصة لامرأة ، أيا كانت ، أن تفسد عليه حياته ·

وفوجئت أيضا ·· لأنى قد رأيت الرجل بعد طول صيام ، أفطر ·· كما يقولون « على بصلة » ·· أو على الأقل هذا ما خيل الى ·· فمهما قيل عن كرم خلقها ، ورقة نفسها ، فهى على أى حال أرملة ذات أبناء ·· قد ولى الشباب عنها أو كاد ، كذلك البصلة قد تكون خضراء ناضرة أو حمراء طليانية ممتلئة ، ولكنها لن تزيد عن أن تكون بصلة ·

كذلك أدهشنى من جانب البصلة ، أعنى المرأة ، بعد كل ما تخيلته فيها من اتزان وعقل وخلق ·· أن تقدم على الزواج ولم يمض عام على وفاة زوجها ·

وهكذا بدا لى الزواج من الجانبين شيئا يبعث على الحيرة · وحاولت أن ألتمس لهما عذرا ، وأخذت أفكر ·· فانتهى بى التفكير الى تعليل واحد لست أستطيع أن أجزم بمـداه من الصحة ·· ولكن لا أخال شخصا قد عرف بنبأ الزواج الا انتهى الى مثل هذا التعليل ، وهو أن الرجل قد أغراه ثراء المرأة ·· وأما المرأة فقد فتنها الرجل ·· فهو على رغم ما قلته من تجاوزه مرحلة الشباب ، ما زال يحتفظ بوسامته وقدرته على اجتذاب النساء ·

وتعودت بعد ذلك أن ازور صاحبى فى داره الجديدة ·· أعنى دار الأرملة الثرية بالزمالك · وفى ذات يوم ، ذهبـت لزيارته فلم اجده ·· ودعتنى السيدة الى البقـاء لانتظاره فجلست اجاذبهـا أطراف الحديث ·

ولست أدرى كيف ساقنا الحديث الى ذكر زوجها السـابق ·· ولكنى وجدت السيدة تطرق برأسها برهة ، ثم ترفع وجههـا الى متسائلة :

ـ لا شك أن زواجى بمثل هذه السرعة قد أثار دهشك !

وشعرت بحرج شديد ، ولم أدر بم أجيب · ان قلت انه قد أثاره ·· كان قولىْ بمثابة اتهام لها بارتكاب خطأ أثار الدهشة ·· وان قلت انه لم يثر دهشى فكأننى أراها امرأة سـوء لا يدهش المرء أن يراها ترتكب خطأ ·

ولكن السيدة لم تنتظر جوابى بل أردفت قائلة :

ـ أنا أعلم انه شىء يثير الدهش ·· فقد كان يجب على أن أصبر وأنتظر ·· على الأقل حتى يتم العام · ولكن دعنى أقص عليك قصة مسلية ·· أغلب ظنى أنها ستزيل كثيرا من دهشك :

ـ كان ذلك منذ زمن بعيد ، وكنت أعيش فى أنقره مع أبى وهو أحد الأطباء الباطنيين وكنت قد بلغت السادسة عشرة عنـدما بدأ

to: www.al-mostafa.com

الضوء يخبو من عينى أمى شيئا فشيئا ، حتى انتهى بها الأمر بعد بضعة شهور الى فقد بصرها ، فأصابنا جزع شديد ، فقد أحسسنا مبلغ ما كانت تقاسيه من ألم نفسانى شديد ٠

وفى ذات يوم اقبل ابى وقد تهلل وجهه وشع من عينيه بريق أمل ٠٠ وأنبأنا أن أعظم أطباء العيون فى أوربا يمر الآن بأنقره ٠٠ وهو يظن أنه قد يستطيع أن يعيد الى أمى بصرها ٠

وفى اليوم التالى حضر ابى ومعه مساعده ، وهو زميل أصغر منه كان يعتبر صديق العائلة ٠٠ ومعهما رجل ذو لحية صغيرة مدببة لم أشك فى انه الطبيب الأوروبى الشهير ٠ وعندما انتهى من فحصه عن أمى سمعته يقول : « هناك بعض الأمل ٠٠ اننا نستطيع أن نرد اليها بصرها ، ولكنها قد لا تستطيع الاحتفاظ به ٠٠ على أى حال ٠٠ لنجرب ٠٠ فلن يكون هناك أسوأ مما هى عليه الآن » ٠

وأجريت العملية ٠٠ فكانت النتيجة باهرة ، أكثر مما كان يخطر لنا على بال ٠٠ فقد أصبحت تستطيع الابصار أحسن منها فى أى قوت مضى ٠

وكان الوقت ربيعا ، والطبيعة قد اكتست أبهى حللها ، كأنها قد رغبت ألا يقع بصر أمى الا على كل ما هو نضر وجميل ، وانى لأذكرها فى ذلك الوقت ، وقد وقفت بجانبى فى احدى الشرفات المطلة على الحديقة بجسدها الفارع المشوق بلا ترهل ولا استرخاء ، ورأسها الصغير الجميل ، وملامحها الساكنة الهادئة ، وقد سبحت بعينيها فى الأفق عندما اختفت الشمس وخلفت للسماء حمرة الشفق ٠٠ فصبغ الكون بلون أرجوانى جميل ، وبدت الأرض منمقة مزركشة ، قد كستها الزهور المتفتحة ، وحمل الينا النسيم عبير زهر البرتقال فملأت أمى منه رئتيها فى شهيق طويل كأنما تعب منه عبا ٠ وسمعتها

تهمس كأنها تحدث نفسها : « ليحدث بعد ذلك ما يحدث ما دمت قد أبصرت هذا ٠٠ انى ساختزن فى نفسى من هذا الجمال ما يعيننى على المضى فى حياتى ٠٠ حتى ولو لم ابصر بعد ذلك » ٠

وفى الأشهر القلائل التى اعقبت ذلك بدا لى انها تحاول حقا ، أن تختزن فى نفسها ذكريات جميلة لكل ما ترى ٠٠ لقد كانت لا تبصر المرئيات مجرد ابصار عابر . بل كانت تبـــدو وكأنها تحــاول أن تستذكرها ، كما يستذكر تلميذ درسه لكى يعيه رأسه ، لقـد كانت تحاول أن تبصر ، لا بعينيها فقط ، بل براسها وقلبها ٠

ولقد كنت أجدها أحيانا تنادينى فجاة ٠٠ ثم تلف ذراعيها حول كتفى وتشملنى بنظرات نهمة ، وتحدث نفسها هامسة :

ـ شعر ذهبى ٠٠ ووجه أبيض دقيق التقاطيع ، وعينان خضراوان ممتلئتان بالأحلام ٠

وكنت كثيرا ما ألمحها تشخص فى أبى بنفس النظرات وقد استلقى فى مقعده مستغرقا فى القراءة ٠٠ فكنت أتذكر قولها : انها ستختزن من المرئيات ما يعينها على الحياة فيما لو فقدت بصرها مرة أخرى ٠

ولم تمض بضعة شهور حتى خبا ضوء عينيها مرة ثانية ، وفى هذه المرة لم يكن هناك أمل فى برء ، أو رجاء فى شفاء ، فقد ذهب بصرها الى غير عودة ٠٠ وألمت بها ظلمة دامســة لا يلوح لها فى حلكتها قبس من ضياء ٠٠ وكانت هى تدرك الحقيقة ، ومع ذلك فقد بدا لى أنها قانعة راضية ، وأنها كانت قد أخذت أهبتهــا لذلك ٠٠ أو كما قالت ٠٠ اختزنت لنفسها من الذكريات ما يجعلها فى غير حاجة الى متعة البصر ٠٠ لقد وعت كل ما تحب أن تراه فى ذهنها وفى قلبها ٠٠ ان الظلمة لم تفاجئها هذه المرة ، ولم تاخذها على غرة ٠٠ حتى لقد سارت حياتها ، كما كانت من قبل ، دون أقل تغيير

او تبديل ٠ فما انقطعت من زيارتها للأصدقاء ، ومن خروجها للنزهة والتجوال فى الأسواق ٠

وكنت أصطحبها أينما سارت ، وقد أسندت يدها بخفة على ذراعى وسارت فى ثقة واطمئنان ، وكان أحب الأشياء اليها أن نخرج سويا للنزهة ٠٠ وأن أصف لها كل ما أراه وصفا دقيقا ٠٠ وتعودت انا ذلك الأمر حتى أجدته كل الاجادة ، وأصبحت الألفاظ تنساب من شفتى فى سهولة كأنى أقرأ صفحات كتاب ، وكانت كثيرا ما تحدثنى ضاحكة :

ـ لقد أصبحت مدهشة ٠٠ حتى لكأنى أرى من حديثك كل ما ترين ، ولكنى لا أود أن أعتمد عليك كل الاعتماد ، لأنك ستغادريننى فى يوم ما ، وتذهبين فى طريقك ٠ أجل ٠ لا بد لى من خادمة تقودنى من الآن ٠

ـ يا أماه ! انى لن افارقك أبدا ٠٠ حتى نهاية العمر ٠

وفى ذات مرة عدنا الى الدار ، فوجدت أبى ومساعده قد جلسا فى الردهة ، وعندما ذهبت أمى الى حجرتها اخبرنى ابى انه قد أوصى على خادمة تتولى عنى مهمتى ٠٠ فقلت له فى دهشة : « اننى لا أشكو شيئا ، وانى لم أطلب أن يتولى عنى أحد أمر أمى » ٠

فقال أبى : « ان هذا الأمر لا بد منه ، ان عاجلا أو آجلا ، فلا بد أن يأتى يوم تفارقينها فيه » ٠

فأجبته : « ان ذلك اليوم لن يأتى ما دام أحدنا على قيد الحياة !! » ٠

وسمعت الشاب يتمتم قائلا :

ـ لا أظنك تتخيلين أنك ستقضين حياتك هكذا ، مجرد ظل ٠٠ لأنك لا شك ستكونين لحياتك الخاصة ، ولزوجك وأولادك ٠

ونفذت هذه الكلمات الى نفسى كأنها السهام ٠ فما من أحد فى

هذه الحياة يرغب أن يكون مجرد ظل لآخر ، وما من شك فى أن آمالا تراود نفسى فتصور لها حياة مستقبلة مفعمة بالهناءة وبيتا جميلا وزوجا وأولادا ، ولكننى كنت لا أدع نفسى تنساب مع هذه الآمال ، فقد كنت أعتقد أن هذه الدنيا لا بد أن يضحى فيها البعض لكى يسعد البعض الآخر ، وكنت أرى القدر قد جعلنى من ذلك البعض الذى يجب عليه أن يضحى ، فقبلت التضحية ، اذ كنت أحس أن أمى لا تستطيع الاستغناء عنى ، وأن احدا لا يستطيع أن يقوم لها بما أقوم به ·· لقد كان يجب على أن أعوض لها بصرها الذى فقدته ·

ولم اشك فى أن أبى ومساعده قد تحدثا عنى مليا ، وخيل الى انى استطعت أن أخمن موضوع الحديث . وان كنت لم أستطع أن أعرف ما قيل بوجه التحديد ·

لقد تحدثنا بلا شك عن مسألة زواجى ·· فأغلب ظنى أن هذا هو ما اثار مسألة الخادمة ·· ولكن كيف تحدثا ، وماذا قالا ؟ لست أدرى ، لقد كان مساعد ابى ـ كما قلت لك ـ صديق العائلة ، وكنت أعتبره أخا اكبر ، ولا شيء أكثر من هـذا ، والواقع أنه كان رجلا هادىء الطبع ، كريم النفس ، جميل الخلق ، ذا مظهر محترم ·· رجلا يستطيع المرء أن يركن اليه فى الشدة والضيق ، ولكنى مع ذلك لم تخطر على بالى فكرة زواجه ·· اذ لم يكن هو الزوج الذى تصوره لى الأحلام ، والذى كنت فى قرارة نفسى أتلهف عليه ، لست أدرى ·· لم ؟ ولكن هذا هو ما كنت احس به ·

ولكن ما لى ولهذا الحديث ، وأنا التى فرض عليها القدر قبول التضحية ·· ورسم لها الطريق الذى لا تستطيع أن تحيد عنه ، وخاصة بعد شهر من هذا الحديث ·· عندما أصابنى القدر بأول فاجعة حددت لى الطريق تحديدا واضحا ·· فقد مات أبى ، وأصبحت وحيدة مع أمى !!

ومرت بى الأيام بعد ذلك ، وأكون كاذبة مدعية ان قلت انها لم تكن طويلة مملة ، وأن ثورة مكبوتة لم تكن تعتمل فى صدرى وانا فى مثل هذه السن الثائرة الفائرة التى تحس فيها الفتاة بنهم الى الحياة ، والتى لم اكن افعل فيها شيئا سوى ملازمة أمى والحديث اليها ، وسوى بعض نزهات يصحبنى فيها مساعد ابى الذى كان شديد العطف على ٠

وفى مرة من هذه المرات ، سألنى الزواج ، قائلا بصراحته وهدوئه اللذين عهدتهما فيه ٠٠ محاولا أن يواجه فى قوله كل الحقائق تى تحيط بنا :

ـ انا أعلم أننى قد اكبرك كثيرا ، وأعلم أيضا أنك لا تحبيننى ٠٠ أعنى ذلك الحب المشتعل الذى يتأجج فى الصدور ، ولكننى اعتقد أننا قد نستطيع أن نسير جنبا الى جنب ، وأن يعاون كل منا الآخر فى حياته ٠٠ ويمكن لأمك أن تعيش معنا ٠٠ لقد احببتك دائما ٠٠ وتمنيت فى كل لحظة أن نكون شريكين فى حياة واحدة ٠

وسادت بيننا فترة صمت طويلة ، عصفت خلالها برأسى الأفكار بشدة وعنف ، ثم أجبت فى النهاية بنفس الصراحة :

ـ انى لا اكن لك سوى الحب والتقدير ٠٠ ولكنى لا أرغب فى الزواج ، أو على الأقل ليست بى رغبة فيه الآن ٠

هل حقا لم اكن أرغب فى الزواج ؟ ! أو أن الرجل نفسه لم يكن الرجل الذى صورته لى الأحلام ، والذى كان يتلهف عليه القلب ؟ ٠ لم أدر الحقيقة وقتذاك ٠٠ وقتذاك فقط ، لأننى بعد بضعة أيام ، بدت لى جلية واضحة ، عندما صادفت رجل أحلامى نفسه ، بدمه ولحمه ، فعرفت أن المسألة لم تكن مسألة رغبة عن الزواج ٠٠ بل كانت رغبة عن الشخص نفسه ٠

لقيته فى احدى الحفلات ، فتى مصريا بالسفارة المصرية • ولم يستغرق الأمر منى شيئا من الوقت او الجهد ، لأتبين فيه أنه الفتى الذى أنتظره ، فقد وفر على القلب ذلك الجهد والوقت ، عندما أحسست به قد خفق بين الضلوع •• وهفا وترنح كالثمل •• لقد كان القلب أدرى وأعلم •

وأخذت الصلة تزداد بيننا ، ودعوته لزيارتنا فى دارنا ، كما دعانا لزيارته •• وهنا بدأت أحس بثقل القيد الذى كنت موثقة به ، وبدأت أشعر بلهفتى على شيء من الوقت يكون ملكا لى ، وعلى شيء من الحرية تمكننى من التصرف كما اشاء ، حتى كان ذات يوم أقبل علينا مساعد ابى ومعه فتاة صغيرة رقيقة قال انها فتاة يتيمة لا عائل لها ، وأنه ظن أنها قد تساعدنا فى خدمة أمى •

ولا تسل عن فرحتى الشديدة بالفتاة ، فقد أحسست أنها ستستطيع أن تهيىء لى ذلك الوقت والتحرر اللذين كنت أتلهف عليهما •• وان كنت لم أحاول أن أظهر فرحتى حتى لا أؤلم أمى •• وحتى لا يداخلها شعور بأننى قد أصبحت أضيق بها •

وكانت الفتاة ذكية فطنة •• فسرعان ما عرفت بيوت الأصدقاء والأماكن التى كنت أرتادها مع أمى ، وأخذت تقوم عنى بمرافقتها فى كثير من الأوقات •• وبدأت أحس أنى قد أضحيت ـ الى حد ما ـ حرة طليقة •• وأنى لم أعد بعد ظلا ، بل أصبحت أصلا أتصرف فى نفسى وفى أوقاتى • وكنت فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة لذلك حتى أستطيع أن ألقى صاحبى •

ولست أظننى فى حاجة الى أن أصف لك تلك الفترة من العمر •• الفترة التى تصاب فيها الفتاة بنشوة الحب الحقيقى •• والتى تحس فيها أنها لا تملك من أمر نفسها شيئا •• وأن زمامها قد افلت من عقلها وأصبح طوعا لقلبها واحساسها •• وأنها قد أصبحت مقودة

بعاطفتها ومشاعرها · دون ان تجد في ذلك غرابة أو تحس غضاضة ·· لأنها سكرى تترنح فى روضة من رياض الحب فواحة غناء ·

أجل لن أحاول أن أذكر لك التفاصيل ـ رغم أنى أجد فى ذكرها لذة ممتعة ـ لأنها شيء يطول شرحه ولأنى لا أظن هناك امرءا لم تمر به تلك الفترة ·· مهما اختلف مظهرها ، وتنوعت ظروفها ·· ولكنى أستطيع أن ألخصها لك فى بضع كلمات هى أن تلك الفترة لم تكن من دنيانا فى شيء ، أو أنها مرت فى غفلة من الزمن ، أو هى حلم من أحلام الدجى ·

وهكذا دابت أرشف من كأس الهوى ، أو على الأصح ، أعب منها عبا ، حتى كان ذات يوم أنبأنى الفتى وقد أسندت برأسى الى صدره أنه سيعود الى مصر ·· فأحسست بقلبى يغوص بين جنبى ·· وبدا على وجوم شديد ·· ولكنه همس فى أذنى :

ـ سنعود سويا الى مصر ·· مصر الجميلة العزيزة ·· أؤكد لك انك ستحبينها كما احببتنى ، ستحبين نيلها العذب القوى يمتد فى بساطة وهدوء ·· ينساب بين بطاحها فى ثقة واعتداد ·· كأنه السيد الكريم المحبوب ·· وحقولها المترامية الخضراء تهز أطرافها نسمات خفيفة وتسمع منها حفيفا كأنه تسبيح بحمد الله والنيل والأرض الخصبة الطيبة ، ستحبين أهلها الكرام الطيبين ، ستحبينها كما احبها أنا ·· لأن كل ما فيها يحب ·

وفعلت كلماته فعل السحر فى نفسى ، فلقد كنت عاشقة ، والعاشق يؤمن بكلام صاحبه ، كما يؤمن بكلام الله ·· وأحسست أنى قد أحببت مصر فعلا قبل أن أراها ·· وتمنيت لو وجدت نفسى بعد غمضة عين بجوار صاحبى على شاطيء النيل ·

وعدت الى الدار بعد ذلك ، وتجنبت لقاء أمى ، فقد خشيت أن تقرأ ما بنفسى ، ولكن تجنبى اياها لم يفد شيئا ، فقد كان يخيل الى أنها تعرف كل شيء · وأنها تحس أننى قد بت بمنأى عنها ، وأننى طرحتها جانبا وسرت فى طريقى ·

وتعود صاحبى زيارتنا فى الدار ·· ورغم ما كانت تلقاه به أمى من حفاوة ظاهرة ·· فاننى كنت أحس أنها لا ترتاح اليه كثيرا ، بل اكثر من هذا كانت تبغضه ·· فأغلب ظنى انها كانت ترى فيه عدوا يوشك أن ينتزع منها شخصا حبيبا ان لم يكن قد انتزعه فعلا ·

وأصيبت أمى بعد ذلك بمرض سبب لى جزعا شديدا ·· وحضر زميل أبى لعيادتها ، ولم يكن مرضها شيئا مفاجئا · فقد بدا عليها الهزال ، وأصابها أرق قبل ذلك ببضعة أسابيع ، وبعد أن فحصها الرجل انفرد بى فى احدى الحجرات ، ثم قال فى هدوء :

ـ يجب علينا أن نواجه الحقائق ، ان أمك تعانى أزمة نفسية شديدة ·

ـ أزمة نفسية شديدة ؟ ·· ماذا تعنى ·· ولم ؟ ! ·

ـ لا داعى للتجاهل ، دعينا نتكلم بصراحة اكثر ، ان امك تعلم كما يعلم كل انسان عن هذا الحب الذى بينك وبين الفتى المصرى ·

وتصاعدت الدماء الى وجهى ، وحاولت أن اقاطعه ، ولكنه اسكتنى باشارة من يده ·· وأردف بصوت ملؤه الرقة :

ـ انى أحدثك كصديق ، ان الأمر نتيجة طبيعية لكل ما حدث ·· لقد كنت ظلا لها خمس سنوات طوال ، فلا اظنك تتخيلين أنها ستتنازل عنك بيسر ·· انها تحاول دون أن تشعر أن تستعيد اهتمامك بها ، انها تخشى أن ينزعك منها صاحبك ، وتخشى أيضا أن تسبب شقاءك ، فهى بين الأمرين فى صراع نفسى عنيف ، قد يكون ذا خطورة عليها

ان لم نتدارك أمره ، وانى على استعداد لأن أقدم لمعاونتك كل ما تطلبين ٠

وسادت فترة صمت استغرقت خلالها فى تفكير عميق ، وبدا لى أننى فى غمرة الحب قد نسيت أمى المحبوبة ، وأنى قد أهملتها شر اهمال ٠٠ وأحسست بضميرى يخزنى وخزا شديدا ٠٠ لقد أعمانى الحب وأضلنى الهوى ، فكنت أنانية الى ابعد حدود الأنانية ، وتذكرت ما كنت أحدث به نفسى عن التضحية ، فأحسست نحو نفسى بالازدراء ٠٠ ورأيتنى تافهة حمقاء ، كصادية اندفعت تعدو وراء أول سراب لاح لها ٠٠ وتواردت الأفكار على راسى فى سرعة البرق ٠٠ فوجدت أنه من العبث أن آمل فى زواج صاحبى ٠٠ لأنه يستحيل على أن أترك أمى واسافر معه الى مصر ، ولا سيما بعد أن رأيت ما قد صارت عليه حالتها من السوء بعد اهمالى اياها ٠٠ فما اظننى قد أصبحت أنانية شريرة الى هذا الحد ٠٠ وكذلك كان من الحمق أن أفكر فى أن تسافر معنا ، فأحمله عبء امرأة عمياء ، وخاصة انى أعلم تماما أن أحدهما لم يرتح الى الآخر قط ٠٠ اذ كلاهما يحس غيرة من صاحبه ٠٠ ولم اكن أشك فى أن الحياة معهما سويا لن تكون سعيدة بحال من الأحوال ٠

وفى خلال هذه الثورة الذهنية التى عصفت برأسى بدا لى أن خير حل أضع به حدا لتلك المتاعب ، هو أن أتزوج هذا الرجل الواقف أمامى ، فما أظننى أطمع فى الحياة فيمن هو أجمل منه خلقا أو أطهر نفسا ، لقد كان رجلا طيب القلب ٠ وأخيرا قطعت حبل الصمت بسؤاله فجأة :

ـ هل ما زلت على استعداد للزواج منى ؟

وذهل الرجل ، ولكنه ادرك بسرعة ما قادنى اليه تفكيرى ، فأجاب بهدوء :

ـ طبعا ما زلت ٠ ولكنى لا أريد أن أكون حائلا بينك وبين من تحبين ٠٠ لا أريد أن أكون دواء مرا تحاولين به التخلص من الام نفسك ، اننى لم اقصد أن أعاونك بهـذه الطريقة ، وانى لا أريد أن أكون سكينا تقطعين به حبل آمالك ٠٠ لا ٠٠ لا ٠٠ دعينا من مسألة الزواج الآن ، فأنا أعرف أنك فى غمرة يأس ٠

ولكننى كنت قد صممت ٠٠ وذهبت الى أمى لأعلنها بالأمر ، فبدا عليها فرح شديد ٠

ولست أجد داعيا لأن أصف لك الأيام القـلائل التى مرت بعد ذلك حتى تم الزواج ٠

اتسمع يا سيدى ، عن ذلك الذى يسمونه « عاصب البطن » وهو شخص قد عصب بطنه حتى يحتمل الجوع ، ويصبر على السغب ؟ لقد كنت وقتذاك « عاصبة القلب » لأنى عصبت قلبى حتى احتمل جوع الحب ، وحتى اصبر على سغب القلب ٠٠ وحتى لا أصـاب بضعف وينفد صبرى ٠٠ فأعدو لأرتمى بين أحضان صاحبى واشبع منه قلبى الجائع ونفسى الصادية ٠

أجل يا سيدى ٠٠ لقد علمت نفسى كيف تكون امرأة صابرة ٠

وقد تتهمنى ، يا سيدى ، بأنى لم أكن أحب صاحبى حبا حقيقيا ، والا لما استطعت الاقدام على مثل هذا الجنون ، أو قد تقول عنى اننى ذات ارادة خارقة ، ولكن الواقع اننى كنت أشـبه بمريض حقنوه بالمخدر قبل اجراء العملية ، وكما يفيق المريض من تأثير المخدر بعد انتهاء العملية فيحس بآلام الجراح التى أحدثها مبضع الجراح ، بدأت أنا الأخرى أفيق لأحس فى قلبى جرحا عميقا ٠

وغادرت البلدة عقب أن تم الزواج ٠٠ مع زوجى ووالدتى لنقضى فى الريف « شهر العسل » (يا له من اسم على غير مسمى) ، ولم أحاول أن أرى صاحبى قبل الرحيل ، اذ كنت فى غير حاجة لأن أزيد

الجرح عمقا ، وأى فائدة فى أن أراه بعد تلك الحماقة التى ارتكبتها ؟

وعاد هو الى مصر ، بعد أن عرف بالأمر طبعا ·· وهكذا افترقنا دون أن يرى أحد منا صاحبه ، ودون أن يودعه بكلمة ، اللهم الا رسالة حملها الى البريد ، لا أدعى أننى وجدت فيها الشفاء ، فقد كان الجرح أعمق من أن تضمده مجرد كلمات ، ولكننى مع ذلك وجدت فى هذه الكلمات شيئا من العزاء ، أتصبر به كلما أضنانى الشوق وعصف به الحنين ··

★ ★ ★

وصمتت السيدة ، ثم رأيتها تنهض وتختفى فى احدى الغرفة برهة ، ثم تعود ثانية وقد حملت فى يدها ورقة صفراء باهتة مطوية بعناية ، ودفعت بها الى قائلة :

ـ هذه هى الرسالة ·· هذا ما تركه لى صاحبى ·

وفضضت الورقة فوجدت بها بضعة أسطر باهتة ، هى ما يلى :

« لا عتاب ولا حساب ·· فانى لا أرى فى ذلك نفعا بعد أن انتهى الأمر ·· انى أحاول دائما أن ألتمس لك المعاذير ، لأنى أحبك ولا أستطيع الكف عن حبك ، ويخيل الى ـ دون أن أعرف حقيقة الأمر ـ أنك لست المخطئة لأنك لا يمكن أن تخطئى ·· فأنا أعرف قلبك الجميل ونفسك الصافية ·· يا حبيبتى ·· انى سأنتظر ، لا تقولى ماذا ينتظر ؟ ولا تقولى أحمق ينتظر بلا أمل ، أو عاشق يلقى الوعود جزافا ، فانى سأنتظر ·· من يدرى ؟ » ·

وانتهيت من قراءة الخطاب !! ثم وقع بصرى على الامضاء ·· فأصابتنى دهشة شديدة ·· فلقد وجدته بامضاء صاحبى ، وعقدت الدهشة لسانى فلم أستطع الا أن أقول :

ـ أهو ؟

وهزت رأسها هزة خفيفة وأجابت :

ــ أجل ٠٠ هو ٠٠ !

ثم أتمت القصة فى كلمات قلائل ، وقالت :

ــ لقد مرت الأيام والأشــهر والســنون ، وماتت أمى ٠٠ ثم اضطرتنا الظروف الى المجىء الى مصر ، فاقمنا فى القاهرة ٠٠ ثم مات زوجى ، والتقيت بصاحبى وصاحبك ٠٠ فوجدته ما زال ينتظر ٠٠ أترى يدهشك بعــد ذلك أن أتزوجه قبــل أن يتم عام على وفاة زوجى ؟ !

أترانى بعـــد كل ما سمعت ٠٠ امرأة متعجلة ٠٠ أم امرأة صابرة ؟ !

امرأة خاسرة

ليس أعجب فى هذه الحياة من ذلك التناقض الذى تظهر به الأشياء اذا ما اختلفت وجهات النظر اليها .. فلو أننا اخترنا احدى الحقائق الثابتة أو احدى الحوادث العابرة التى تمر بنا .. وحاولنا أن نقارن بين المظهر الذى تبدو به لبضعة أشخاص متباينين .. لا صلة بينهم ولا شبه .. ولو حاولنا أن نزن وقعها فى نفوسهم لراعنا ذلك التناقض العجيب الذى يظهر به الشىء الواحد ولعلمنا أنه ما من شىء فى هذه الحياة له قيمة فى حد ذاته ، وانما قيمة هذه الأشياء كائنة فى قلوبنا وفى الطريقة التى تعكسها بها مرآة نفوسنا .

ولنضرب مثلا .. جنازة فى طريق .. قد نمر بها فى عربة ونحن فى عجلة من أمرنا .. فيعطلنا ازدحام المشيعين لحظة أو لحظات .. فنظهر السخط والتبرم .. ولا تزيد نظرتنا الى ذلك الذى يوشك أن يثوى فى جدثه .. عن نظرتنا الى وسيلة تعطيل كقطار يمر بجسر لولبى أو جندى مرور فى تقاطع طرق .

اجل ٠٠ هذه هى الصورة التافهة التى يبدو فيها ذلك الميت الذى قد يكون موته حدثا فى نفوس آخرين ، وقد يكون فى رحيله الى قبره ـ ذلك الرحيل الذى لم يسبب لنا اكثر من تعطيل دقيقة أو دقيقتين ـ قد خلف قلوبا موجعة وعيونا دامعة ، ومع ذلك فما اظننا الا خيرا من سوانا بالنسبة لذلك الميت ٠٠ على الأقل خير من ذلك الحانوتى الذى لم ير فيه أكثر من صفقة رابحة اثلجت صدره وأفرحت قلبه ، وخير من الترابى وغيره من مقرئى القبـور الذين لم يروا فيـه أكثر من موسم شغل ٠

هذا هو مثل لتلك الحوادث العابرة التى تصادفنا كل يوم ، ومثل آخر ٠٠ هذه القصة التى سأسرد حوادثها والتى لم ار فيها فى أول الأمر الا اقصوصة تافهة لا تستحق أن تشغل من ذهن المرء الا بمقدار سماعها ، وبمقدار كلمة أو كلمتين يعلق بهما عليها ، ثم يجاوزها الى غيرها من اقاصيص الحياة ٠

ثم رأيت القصة بعد ذلك من زاوية اخرى ٠٠ زاوية قريبة ٠٠ أبدت لى الكثير من التفاصيل والخفايا ، فراعنى ذلك التناقض بين ما كنت أرى وما رأيت ٠

القصة من الزاوية الأولى ، لا تزيد على خبرين نشرا متعاقبين ٠٠ تفصلهما بضعة أيام ٠٠ كلاهما لم يشغل من الصحيفة التى نشر بها الا بضعة أسطر مقتضبة يمر عليها المرء ببصره مرورا عابرا ، وكان الخبر الأول هو خبر زواج مطربة من رجل غير معروف ، والخبر الثانى هو وفاة هذا الرجل غير المعروف ، وقد أثار الخبر الأول فى نفسى بعض الدهش من أن تتزوج المرأة اخيرا بعـد طول عهـدها بالوحدة ، وبعد أن تركت فرصا عديدة تفلت من يديها ، ولكننى لم أعلق على الخبر بأكثر من أنها قد تكون احبت الرجـل ، وقد يكون

الرجل أحب ثروتها الطائلة ٠٠ أما الخبر الآخر فلم أر فيه أكثر من نوع من سخرية القدر ، وما كنت أتوقع من القدر سوى السخرية ٠

ثم امحى من ذهني بعد ذلك كل شيء عن الرجل الراحل والمطربة الأرملة ، وجرفهما تيار النسيان الجارف القوى ، ونأى بهما عن الذاكرة ، حتى قادتني الظروف ذات يوم الى لقاء المرأة وكان اللقاء في بيتها الأنيق في شارع الهرم ٠٠ وقد أدهشني أن أجدها تتشح بالسواد ، ولكنني تذكرت حينئذ ذلك الرجل الذى تزوجها ومات بعد بضعة أيام ، وعجبت أن تكون المرأة قد حفظت له عهد تلك الايام القلائل التى لبثها معها ٠

وقدمت اليها على أنني « فلان » - كاتب قصة - واذكر أنني شعرت بشيء من الزهو عندما رأيتها تضغط على يدى وتقول باسمة انها قرأت لي ، وجلست واياها فى حديقة الدار بعد أن انصرف الزائرون ، ورأيت منها صفاء ذهن ، وحدة ذكاء ، وفي حديثها طلاوة ورقة ٠

ووجدتها تسألني بعد برهة :

- حدثني كيف تكتب قصصك ؟

- حوادث من الحياة ٠٠ أضيف عليها بعض التنميق والتحوير ، واضفى عليها بعض التهويش ، ثم أحاول أن أجعل لها خاتمة بها شيء من الغرابة !

وضحكت المرأة لتلك الصراحة ثم قالت :

- ما رأيك فيمن يهب لك قصة ؟ هى - على حد قولك - حادثة من الحياة ، ولكنني أؤكد لك انها لا تحتاج منك الى ذلك التنميق والتحوير والتهويش ، ولن تحتاج الى ان تبتكر لها خاتمة عجيبة ٠٠ بل كل ما عليك هو أن تضعها كما هى ٠٠ بتفاصيلها وحذافيرها ٠٠ وأؤكد لك انها ستكون خير ما كتبت ٠

وضحكت بدورى وقلت لها :

ـ كثيرون غيرك قالوا ما قلت واضاعوا وقتى ووقتهم فى قص حياتهم على متخذين منها عجبا ، واخرج منهم فى النهاية بلا شىء ٠٠ أو بما لو فكرت فى كتابته قصة لما سمح لى أحد بعد ذلك بالكتابة ٠

ونظرت الى المرأة وهزت راسها هزات خفيفة وقالت :

ـ لست أنا ، وليست قصتى ٠٠ على أى حال ٠٠ لتسمعها فان كانت سخيفة ، فما يضيرك أن تزيد السخافات التى سمعتها سخافة !

وبدأت المرأة تقص قصتها فكان أول ما قالته :

ـ بدأت حياتى خادمة ٠

ثم نظرت الى فلم تر منى بادرة دهشة . فسألتنى فى شىء من الاستنكار :

ـ لم لا تدهش ؟

ـ ولم الدهش ٠٠ وأغلبكن قد بدأ حياته كذلك ٠٠ ولست أرى فى ذلك ما يستدعى الخجل قط ٠٠ على العكس ٠٠ اننى أرى فيه ما يستدعى الفخر لأن الانسان فى هذه الحياة أربعة أنواع : واحد يبدأ حياته شيئا فينتهى الى لا شىء ، وواحد يبدأ حياته شيئا فيستمر شيئا ، وثالث يبدأها لا شىء ولا يزيد فى النهاية عن لاشىء ، والأخير يبدؤها وهو لاشىء فيصبح فى النهاية شيئا كثيرا ٠٠ فلو وازنا بين الأربعة الأنواع لوجدنا شرها الأول وخيرها الأخير ، أما الثانى والثالث فكلاهما انسان لم يستطع أن يضيف الى نفسه اكثر مما وجدها عليه ، فهو انسان عادى ٠٠ وأنت يا سيدتى وغيرك ممن بدأن حياتهن خادمات أو ما شابه ذلك ٠٠ ثم صرن الى مثل ما صرت عليه ٠ من النوع الرابع ٠٠ أى من خير أنواع الانسان ٠٠ ولو كنت خادمة ٠

ورأيت المـرأة قد استغرقت فى الضحك ثم رفعت الى بصرها قائلة :

ـ على أية حال أنا لم اخجل قط من أن اقول انى كنت خادمة ٠٠ غير انى لست أرى ما تراه من أن أعلن فى كل فرصة أني كذلك ٠٠ لأن الناس ليسوا كلهم عقلاء مثلنا ، أو على الأصح ، ليسوا كلهم مجانين مثلنا ٠

ـ أتمى قصتك ٠٠ لقد قلت انك بدأت حياتك خادمة ٠

ـ أجل ! خادمة فى منزل بحى السـيدة زينب ٠٠ وكم عدوت بقدمى العاريتين اقطع حارة السـيدة ذهابا وايابا حاملة زجاجة الزيت ، أو طبق الفول ، أو سلة الخضار ٠٠ انى لأتخيـل احيانا لو كانوا يضعون للانسان عدادا كما يضعون للعـربات اذا لسجل العداد الذى ركب فى جسدى الصغير وقتئذ آلاف الأميال من مجموع تلك المسافات التى كنت اقطعها بين الباعة فى شارع السد البرانى وبين الدار فى جنينة لاظ ٠

ولم أكن احس بالكثير من السعادة وقتئذ ٠٠ رغم أن أهل الدار لم يكونوا قساة غلاظ الأكباد ، فقد كان رب البيت رجلا كثير المرح ، طيب القلب ٠٠ ولم تكن صلتى به لتزيد عن تحضير الجزمة والشراب واللبيسة ، وكانت تلك أسهل الواجبات الملقاة على عاتقى ٠٠ ولم تكن ربة البيت أيضا بالمرأة الشريرة ٠٠ ولكن كان أسوأ ما بها انها كانت تستشيط غضبا عندما يطول بى الغياب فى السوق ، وكنت انا لا يسعدنى فى ذلك الوقت قدر التلكؤ واللعب فى الطريق ، وكان لى العذر كل العذر فى ذلك ، فقد كنت لم أعد بعد دور الطفولة ٠ وكانت تلك هى الفرصة الوحيدة التى أطلق لنفسى فيها عنان اللهو واللعب ٠٠ ولكن المرأة لم تكن ترحمنى وقتذاك من علقة ساخنة عقب كل غياب ٠

وشيء آخر كان يغيظني فى المرأة هو شدة حبها للنظافة ٠٠ فكنا

to: www.al-mostafa.com

لا نكاد نكف لحظة عن الكنس والمسح والتنفيض ، ولكننى أعترف انها كانت تقوم وحدها بمعظم العبء ·· فقد كانت حمارة شغل ·

وكان يوجد فى الدار غير الرجل والمرأة ابناهما الصبيان اللذان يقاربانى فى السن ، وهذان لم اكن القى اليهما كثير اهتمام ·· رغم ما كان يصيبنى من احدهما من الشلاليت ·· عندما انسى أن أمسح أحذيتهما ثم أدعى انى قد مسحتها ·

اقول رغم ما كان يصيبنى من أحدهما ·· لأن الآخر وهو الأصغر كان الوحيد فى الدار الذى لم يصبنى منه أذى مذ دخلت الدار ·

لقد كان الصبى طيب القلب ، رقيـق النفس ، فكنت كثيرة الاطمئنان اليه ·· لا احس له هيبة السادة ·· بل كنت اشعر دائما عندما أحدثه أو اقضى له حاجة أنه اما أن يكون هو خادما مثلى ، أو اكون أنا من أهل الدار مثله ·

وكان اكثر ما يحببنى فيه وقتئذ انه كان كثيرا ما يجـود على بجزء غير يسـير من نصيبه من الطعـام « المخصوص » ، واقصد بالطعام المخصوص ـ تلك الأنواع التى لا يتذوقها الا السادة فقط ـ والتى لا يكون للخدم نصيب منها الا الرؤية والرائحة ـ أو مع أحسن الفروض ـ بقايا أو فتات لا تشبع من جوع ولا تغنى من نهم ، واذكر منها على سبيل المثال وقتئذ : المنجـة ، والجبنة الرومى ، وعيش السراية بالقشدة ، وغيرها من الأصناف التى كنت أتحرق شـوقا اليها ·

ومرت الأيام وبنفسى من السخط ما بنفس كل صبية فى مثل سنى تعمل خادمة ·· ولكنى لم اكن أسـتطيع سوى البقـاء لأنى كنت لا أعرف أين أذهب حتى أحسست فى ذات مرة أن هذا السخط يزول من نفسى ·· وأن شعورا آخر قد حل محله ·· ليس فقط بالرضا ·· بل بالسعادة والغبطة ·

ولم أكن أدرى وقتئذ سر ذلك الانقلاب الذى أصابنى والذى حبب الى الدار وأهل الدار ٠٠ ولم أحاول أن أناقش نفسى فى سبب شعورها بالسعادة والغبطة ، بل اكتفيت بأن أتركها تنغمر فى ذلك الشعور الذى لا تدرى كنهه ٠

وأذكر انى كنت فى الثانية عشرة أو الثالثة عشرة ٠٠ أى فى تلك السن التى يبدأ فيها النضج ٠٠ والتى تحاول المرأة فيها أن تطل من جسد الصبية ٠٠ وأذكر أيضا أن محور اهتمامى قد أضحى ذلك الصبى الأصغر ٠٠ وأنى كنت أركز جهودى فى محاولة ارضائه وفى خدمته ٠٠ وقد يكون فى ذلك عرفان للجميل فقد كان الصبى ما زال على بره بى وحدبه على ، وكان كثيرا ما يتغاضب مع أخيه أو مع أمه بسبب محاولتهم ايذائى لسبب أو لغير سبب ٠

أقول لك انه قد يكون فى اهتمامى بالصبى عرفان للجميل . ولكن الواقع أنه لم يكن كذلك ولكنه كان حبا !

لا تدهش يا سيدى ، ولا تتهمنى بالحمق اذا ما حاولت . وأنا خادمة ، أن أحب سيدا لى لأن الحب لا خيرة فيه ٠٠ بل هو من الأشياء التى يضطر اليها الانسان اضطرارا . وان المرء ليصاب به كما يصاب بمرض من الأمراض ٠ فان حق لنا أن نتهم مريضا بالتيفود بالحمق لأنه لم يصب بمرض أخف وطأة ٠٠ انفلونزا مثلا ٠٠ أو زكام ، لحق لك أن تتهمنى بالحمق لأننى أحببت سيدا ٠٠ ولم أحب خادما مثلى !

لقد كان لا يمكن لى الا ان أحبه ٠٠ لأن الصبى كان لا بد أن يحب ٠٠ لقد أحبه كل من حوله ٠٠ أمه وأبوه وأخوه وأصدقاؤه وأقرباؤه ٠٠ وكل بنات العائلة اللاتى لهن به صلة ٠ دعنى أصفه لك ، كما كنت أراه فى ذلك الحين ٠٠ فى نحوله وصفاء عينيه . ونقاء بشرته ، وشعره الذهبى . وأسنانه البيضاء الناصعة التى لم

يكن أسهل على الانسان من رؤيتها ، فقد كان دائم الضحك ، كثير المرح ، حلو الفكاهة ·

وطويت حبى فى صدرى ، راضية بهذا العطف الذى كان يشاركنى فيه كل من حوله ممن يستحقون منه العطف كالشحاذين والكلاب الضالة والقطط الجائعة ·· حتى كان يوم دفعنى فيه شيطان الحب الى أن أتطلع الى أكثر من الشفقة والعطف ·

كان ذلك يوم خميس . وقد حضر الصبى من المدرسة ، فطلب من امه نقودا لأنه سيذهب غدا فى رحلة مع أصدقائه ··· ولكن أمه أنبأته أنه لا داعى لتلك الرحلة لأن بعض الأقرباء سيتناولون الغداء معهم فى الغد . كما أنه لا يوجد معها نقود ·· وبدت خيبة الأمل تظهر على وجهه ·· وأخبر امه انه قد اتفق مع اخوانه فلا يمكنه النكوص ، وانه كان يتلهف على الذهاب الى تلك الرحلة منذ زمن طويل ·

ولكن المرأة أصرت على الا يذهب · وألح الصبى فزادت المرأة اصرارا ·· وأخيرا غادرها الى حجرته وسمعت صوت بكائه ، وكنت أول من سمعه يبكى ، ولا ادرى ما الذى جعلنى لا اتمالك نفسى فابكى انا الأخرى ·· لقد تمنيت لو استطعت أن ادخل عليه فأحتضنه وأكفكف دمعه وأعطيه ما يشاء من النقود ·· ولكنها كانت أمنية عسيرة التنفيذ ·

وبعد برهة حضر الأب من عمله وعلم من الأم بما حدث فسمعته يؤاخذها على ذلك العناد الذى لا مبرر له ·· ورايته يدخل على الصبى ويعطيه ما يريد من النقود ·

ورأيت الصبى بعد ذلك ضاحكا متهلل الوجه ، واقبل على يحدثنى عن الرحلة التى سيذهب اليها فى الغد وطلب منى أن أجهز له بعض ما يلزمه ·

وقبيل العصر خرجت من الدار لأبتاع بعض الحاجيات وانطلقت

أعدو فى حارة السيدة ، حتى وصلت الى عم عبد المعطى البقال فى أول شارع السد وطلبت منه ما أريد ، ثم مددت يدى فى جيب الجلباب ·· فلم أجد النقود ·

وحرت فى أمرى ·· وتملكنى خوف شديد · لقد سقطت منى فى الطـريق ·· ترى كيف أستطيع العـودة الى البيت ؟ وترى ماذا يصيبنى من سيدتى عندما تعلم أنى قد أضعت النقود ؟ !

وعدت أدراجى فى الطريق مطاطئة الراس دامعة العينين ابحث بعينى فى جوانب الطريق لعلى أجد النقود هنا أو هناك · ولكن متى كان الانسان يجد شيئا يبحث عنه ؟ وعلى الأخص اذا كان نقودا ''··

وأخيرا جلست أنتحب على الرصيف ·· ويخيل لى أن غيبتى قد طالت ، فقد رأيت الصبى يقبل على باحثا عنى ، وعندما وجـدنى أبكى ظهرت عليه الدهشة وسألنى عما بى ·· فأنبأته أن النقود قد فقدت ·· ولاح الحزن على قسماته برهة ·· وسألنى كم كانت النقود ·· فاخبرته بها ·· ورأيته يفكر قليلا ، ثم انبسطت أساريره مرة واحدة وجذبنى من يدى قائلا : هيا الى البقال ·

ولم يعطنى فرصة للتفكير حتى أعرف ماذا ينوى أن يفعل بل أخذ يعدو وأنا أعدو خلفه حتى وصلنا وابتعنا الأشياء المطلوبة . ومد يده فى جيبه فاخرج النقود وأعطاها للرجل ·

وأدركت عندئذ أن النقود لا بد أن تكون نقود الرحلة التى كان يحلم بها والتى بكى لأن أمه رغبت فى حرمانه منها ·· وأحسست الحزن يعصف بى ·· فقد كنت أنا التى سأحرمه هذه المرة '' ·

ونظرت اليه وقلت له : انى سأنبئهم بالحقيقة . حتى يردوا اليك نقودك ··· ولكنه نظـر الى فى غضب وقال لى : اياك أن تقـولى شيئا ·· سأعرف كيف أتدبر الأمر ·

وعندما عدنا قال لأمه التى كانت تستشيط غضبا ·· الازدحام كان شديدا عند البقال وانها لا ذنب لها فى هذا التأخير ·

وفى تلك الليلة لم أذق النوم الا لماما ·· فقد كنت أفكر ماذا سيفعل الصبى فى الغد وليس معه نقود ·· وفى الهنيهات التى نمت فيها كنت أحلم أنى قد عثرت على كنز ، وأنى أخذت أحمل منه النقود الى الصبى لكى يذهب الى رحلته ·

وفى الصباح خرج الصبى مبكرا بعد أن جهزنا له طعامه فى حقيبته الجلدية وملأنا له الترموس بالمياه المثلجة ·

وقبيل الغروب عاد وعليه غبار الرحلة ·· وأخذ يصف لنا فى صوت ملىء بالابتهاج ما رآه وما صادفه ، وكنت أعجب فى نفسى كيف حصل الصبى على النقود ·· ولكنى علمت منه بعد ذلك أنه قضى طيلة يومه جالسا عند « عم امام الحلوانى » وأن الغبار الذى كان عليه من غبار الحارة وأن المعلومات التى انبأنا بها لم تزد على ما قرأه فى كتاب « القراءة الرشيدة » ·

هذه هى الحادثة التى جعلت شيطان الحب يسلبنى نعمة القناعة بالشفقة والرضا بالعطف ، فأحاول ان أطمع منه فى حب كذلك الحب الذى يجيش به صدرى ·· واذا أنا أحس صراعا فى نفسى ·· فقد كانت المرأة التى تكمن فى تحاول أن تبرز الى الوجود ·

ومرت الأيام بعد ذلك وكل منا يسير فى طريق النضج ، أنا الى فتاة ·· وهو الى فتى ·· ووجدتنى أوجه عناية كبرى الى زينتى — ان كان يمكن أن يكون هناك زينة لخادمة — واستطعت أن أحصل على مرآة صغيرة وضعتها فى صندوق ملابسى · وكنت أحتفظ بمشابك الشعر التى أعثر عليها ملقاة من شعر سيدتى على الأرض ، وكنت أحاول جهدى ألا أبدو أمامه الا وأنا راضية عن منظرى ·· والواقع أنى لم أكن قبيحة بحيث أيأس من الحصول على حبه أو اعجابه ··

على النقيض لقد كان الكثيرون يقولون عنى اننى جميلة ·· وكانت كلمات الغزل تلقى على من كل جانب ، اذا ما سرت فى الطريق . من الخدم والبوابين والباعة ، بل من الافندية و البهوات فى كثير من الأحيان ·· ولم اذهب بعيدا وأخوه نفسه ــ وقد لا أكون كاذبة ، اذا قلت وأبوه أيضا ــ قد بدآ يوجهان الى نظرات الافتتان من طرف خفى ، وفى غفلة من الأم ؟

ولكنه هو ·· هو وحده ·· الذى كنت أتلهف عليه ·· واتمنى أن يحس انى قد أصبحت امرأة ·· لم يكن ينظر الى أكثر من نظرته القديمة ، ولم يرنى اكثر من خادمة مسكينة تستحق العطف ·

وفى ذات يوم خرج أهل الدار جميعا وبقيت فى البيت وحيدة ، وزين لى الشيطان أن أرى نفسى عندما أبدو كسيدة فقد وددت أن أرى هل اكون ذات وقع فى نفسه اذا أتاحت لى الظروف أن أكون سيدة ؟ وهل أنا اقل جمالا من أولئك السيدات اللاتى أبصرهن ؟

ودخلت حجرة السيدة واخرجت أدوات الزينة وبدأت أزين وجهى وأمشط شعرى ، فلما انتهيت نظرت الى المرآة فوجدتنى رائعة ، ولم تكن ملابس السيدة تناسبنى ، ولكنى مع ذلك اخذت اجربهــا ثوبا ثوبا ، لأرى كيف أبدو فيها ·

واخيرا انتهيت من تجربتها جميعا ·· ووقفت أمام المرآة وأخذت أجرد نفسى من الثياب قطعة قطعة ·· لقد رغبت فى أن أرانى كيف أبدو عارية ·

يا لله ·· انى ما ظننت قط أنى رائعة كما بدوت ·· هذا الصدر الممتلىء المستدير يبدو جامدا كأنه قد صنع من حجر ، وهذا الجسد المستوى بلا ثنيــات ولا زوائد . وهــذا الخصر الرقيق ، وهاتان الساقان الممتلئتان ·· لقد احسست الثقــة تملأ نفسى ، والسعادة

يفيض بها قلبى ٠٠ اجل ٠٠ لقد اطمأننت الى أنى ساستطيع الحصول على حبه ٠

وفى نفس المساء وجدته يجلس وحيدا فى حجرة المكتب وكل من فى الدار رقود ، واحسست بلهفة شديدة عليـه ، وتمنيت أن أهب نفسى له ٠٠ وكانت الفرصة سانحة ٠٠ ولم أكن أخشى أحدا ٠٠ الا هو ٠٠ فقد خشيت الا أفلح فى اغرائه ٠٠ ولكنى تذكرت صورتى وأنا أمام المرآة فعادت الى الثقة ٠٠ ودخلت الى الحجرة ٠٠ ورفع الى عينيه وسألنى عمـا أريد ٠٠ واضطربت بعض الشىء ولكنى اقتربت منـه ٠٠ وشعرت بالرغبـة تعصف بى ٠٠ فلم أدر الا وقد احتضنته بين ذراعى ووضعت فمى على فمه ٠

ولا شك أن الفتى قد اعترته دهشة شديدة ٠٠ فقد سادت لحظة صمت ٠٠ ثم رأيته يدفعنى بعيدا عنه . ويرفع يده فيهوى بها على فى صفعة لم أذق مثلها فى حياتى قط ٠

ولم أحس يوما ما بألم الخذلان ولا مرارة الهزيمة كما احسست بهما فى تلك الليلة ٠٠ لقد انسحبت من الغرفة فى بطء وعدت الى فراشى فى المطبخ وارتميت عليه . وقد أخذتنى الرجفة كأننى فى النزع الأخير ٠

لقد كرهت نفسى ٠٠ لأننى لا أستطيع أن أكرهـه ٠٠ وقلت لنفسى اننى المخطئة ، لأننى كنت واثقة أنه لا يخطىء ٠٠ لقد كنت مغرورة ونلت جزاء غرورى ٠

ولكن لم لا يكون كغـيره من النـــاس ؟ لم يأبى الا أن يرانى كخادمة ؟ لم لا ينزل مرة عن هذه المثالية التى هو فيها ٠٠ ؟ ترى لو كنت قد ذهبت الى أخيه أو أبيه . أو الى أى مخلوق سواه ، أكان يمر بى سكون الليل كما مر معه ؟ ا أترى نصيبى منهم كنصيبى منه

صفعة وازدراء ؟ ! اقسـم انى لو فعلت لكنت الآن مستلقية فى فراشهم ٠

ولكنى مع ذلك أحبه ٠٠ هو ٠٠ وأريده اكثر مما أريد أى شىء فى هذه الحياة ٠

وطال بى التفكير فى هذه الليلة وصممت فى النهاية على أن أترك الدار ٠٠ لأنى أريد حبه ٠٠ ولن أحصل عليه ما دمت خادمة ٠٠ فخير لى أن أخوض غمار الحيـاة ، ومن يدرى ؟ ربما سـاعدتنى الظروف فصرت فيهـا شـيئا ٠٠ واستطعت أن أنتزع منه الحب والاعجاب ، وحتى لو لم أصر شيئا ٠٠ فذلك خير لى من البقاء هنا كالمهاجر الصادى بجوار غدير حرم عليه مسه ، واغلب ظنى انه حتى الشفقة التى لم اكن بها قانعة ، ستتبدل احتقارا وازدراء ٠

وقبيل الفجر هربت من البيت وبنفسى لوعة وبقلبى حرقة ٠

ولا اظن هناك داعيا لأن اذكر لك تفاصيل تلك الفترة من الزمن التى مرت بى بعد ذلك ، ولكنى اؤكد لك انى لم أستطع أن اصل الى اول درجة من سلم المجد والشهرة الا بعـد أن أدمى حصى الطريق قدمى ٠٠٠ ومزقت اشواكه جسدى ٠ واؤكد لك ان عينى لم تبصرا النور الا بعد أن طالت بهما الحلكة ، وأنى قد رايت فى هذه الفترة المظلمة أسوأ ما يمكن أن تراه امراة فى الحياة الدنيا ٠

ومع ذلك فلم أنقطع فى تلك الفترة عن رؤيته قط ٠٠ ولكن دون أن يرانى أو يحس بى ٠٠ فقد كنت أعرف مواعيده وأعرف حركاته وسكناته ، وكان فى رؤيتى له غذاء لروحى الجائعة ونفسى الشريدة الظماى ٠

وفى ذات ليلة ــ بعـد أن أخـذ نجمى يبزغ ويرتفع ــ كنت فى احـدى الحفـلات وقد بدات الغنـاء ٠٠ فاذا أنا ألمح وجهه بين الحاضرين ، واصابنى اضطراب ٠٠ فقد كنت أتمنى منذ بدات أعتلى

قمة الشهرة ·· أن يرانى فى حياتى الجديدة ·· وأن يحس أنى أستحق منه أكثر من الشفقة أو الاحتقار ·· وتمالكت نفسى وبدأ الاضطراب يزول شيئا شيئا ، واخذت أفنى نفسى فى الغناء فقد كنت أحس انى أغنى له ·· له وحده ·

وانى لأذكر أن هذه الحفلة هى التى دفعتنى الى قمة المجد واذكر كيف انهـــال على المهنئون . ولكنى لم احس بلذة النجاح والانتصار . الا عندما وجدته يقبل على ويشد على يدى مهنئا ·

ان من العبث أن احاول وصف سعادتى فى تلك اللحظة ، فمثل هذه المشاعر لم تخلق لها الالفاظ التى تستطيع أن تعبر عنها ·

لقد تسللت به من وسط الازدحام ودعوته الى مرافقتى الى بيتى ·· وعندما وصلنا الى البيت سألته أن يصعد معى وأخيرا احتوتنا غرفة واحدة ·· تختلف كثيرا عن الحجرة التى جمعتنا فى المرة الأولى ·· بذلك العطر الذى يتضوع منها وذلك الجو السحرى الذى يملؤها ·· وأنا ·· اجل ·· أنا ·· لم أعد بعد خادمة تسللت من المطبخ بثيابها التى تفوح منها رائحة الجاز والبصل ·· بل امرأة يسعد كثيرون من الناس بأن تشير لهم بتحية من يدها ·· امرأة ذات ثوب أنيق يبرز من جسدها اكثر ما يخفى ·· ويفوح منها شذى عطر ، لو نطق لقال : « ضمنى بين ذراعيك » ·

وكنت اكثر حنكة فلم احاول أن أتسرع فأضمه الى كما فعلت فى المرة الأولى ·· بل جلست أمامه وأخذت اغنى له بصوت خافت ·· ثم نهضت بعد ذلك لأبدل ثيابى . ووقفت أمامه بالثياب الداخلية ، فرأيته يقترب منى ·· ومد ذراعيه فاحتوانى بينهما ·

يا للأمل الذى تحقق ·· لقـد أحسست بأنفاسه اخيرا تلهب انفاسى . وبشفتيه تضغطان على شفتى ·· وانتظرت ان يحملنى الى

الفراش ·· ولكنى رأيته ينظر الى الساعة فى يده ثم يدفعنى عنه برفق وهو يقول :

ــ لقد تأخرت !

ونظرت اليه فى دهشة شديدة وحنق ·· ولكنه هز رأسه ببطء وقال :

ــ انى متزوج ···

« متزوج » ؟ ! ·· أهكذا بعد طول الانتظار اجده قد أفلت من يدى ·· ولكن ماذا فى أن يكون متزوجا ·· وماذا يضير زوجته التى تتمتع به ليل نهار ·· أن أتمتع به ساعة أو ساعتين وأنا التى أدميت قدمى حتى وصلت الى تلك اللحظة ؟ !

ووجدت من العبث أن أستبقيه ·· فقد رأيت فى عينيه نظرة العزم والاصرار التى رأيتها فى المرة الأولى ·· وأدار لى ظهره تاركا اياى غريقة فى ألم الخذلان ومرارة الخسارة تماما كما تركنى أول مرة ، لا ينقصنى الا الصفعة ، وحتى هذه لم يبخل على بها ·· فقد رأيته يدير وجهه الى كمن تذكر شيئا ·· ثم مد يده فى جيبه وأخرج بضع أوراق مالية تركها على المنضدة ·

وغادر الحجرة وتركنى ·· كما كنت ·· خادمة ذليلة ·

يا للرجل ·· انه يأبى الا أن يكون مثاليا . كما كان فى طفولته ·· كم أود أن أكرهه ·· ولكننى لا أستطيع ·· لقد أمسكت بالنقود وحفظتها عندى لأنها شىء يذكرنى به ·

ومرت الأيام والأشهر والسنون ·· ولم أكن القاه الا لقاء عابرا ، ولكنى كنت فى كل مرة القاه فيهـا أحس أننى لم أزل أحبه وأننى لا يمكن أن أكف عن حبه حتى أموت ·

وأخيرا ماتت امرأته ، والتقيت به بعد ذلك ·· ورأيت بارقة أمل قد سنحت لى . فسألته أن يتزوجنى ·· أجل ! أنا التى سألته ··

ورأيته قد بهت فى أول الأمر ٠٠ تماما كما بهت حين دخلت عليه الحجرة وأنا خادمة واحتضنته وقبلته ٠٠ ولكنه فى هذه المرة ٠٠ كان أكثر رفقا ٠٠ وألين جانبا ٠٠ ولم يكن نصيبى منه صفعة ٠٠ أو على الأصح كانت الصفعة منه غير مقصودة ٠٠ أو ٠٠ من يدرى ؟

لقد قبل الزواج بى ٠٠ ولكن الزواج لم يكد يتم ، ولم أكد أحس انى قد حصلت عليه بعد طول انتظار ٠٠ حتى أصابه مرض أخذ يشتد به ويتفاقم ٠٠ وبعد بضعة أيام ٠٠ هوى على بالصفعة الثالثة ـ أو قل بالطعنة الثالثة ـ وغادر الحياة ، وتركنى فى هذه المرة ٠٠ لا خادمة ذليلة ٠٠ بل نفسا بالية ، وروحا ذاوية ، وامرأة مخذولة خاسرة ٠

★ ★ ★

وصمتت المرأة بعد ذلك . فلم تنبس ببنت شفة ، ونظرت الى وجهها فرأيت الحزن قد تجسم فى قسماته ٠٠ فأدرت وجهى الى الناحية الأخرى وتركت دمعتين تنسابان من عينى ٠٠ وكان هذا هو ما علقت به على القصة عندما سمعتها من المرأة ، أو ٠٠ عندما أبصرتها من الزاوية الأخرى ٠

امـــرأة نائـمـة

هذه قصة امرأة ٠٠ قد أظلمها كثيرا لو رميتها بالجنون . رغم أن صاحبتى التى ذهبت بى لزيارتها ٠٠ قد أنذرتنى سلفا بأنها امرأة مجنونة ٠٠ وان كان جنونها لا يزيد على أنها تعتقد أنها نائمة ، وأن كل ما تفعله وتراه ، لا يعدو أن يكون حلما ٠

وأقول الحق اننى كنت أشعر . وأنا فى طريقى لزيارة المرأة ٠٠ أنى سأجد شيئا يبعث على التسلية . بل كنت أعتقـد انى لن أعدم وسيلة أعيدها بها الى وعيها وأثبت لها أنها فى يقظة تامة وأنهـا ليست نائمة ٠

ومع ذلك ، فقد لقيت المرأة وسمعت حديثها ٠٠ وأقسم أنه ما من امرىء استطاع أن يستذرف من عينى الدمع كما استذرفته هـــذه المرأة ٠٠ حتى لقد انتهى بى الأمر الى أن أجزم لها أنها ما زالت نائمة ٠٠ وأن كل ما تراه ليس الا حلما ٠

أجل لقد كان ذلك خير عزاء لها ٠٠ ولم لا !! أليست الحياة كلها أحلاما وأوهاما ٠٠ فعلام اليقظة اذا ٠٠ ؟ !

هذه هى قصة المرأة كما قصتها على ·· وكما استطاعت ذاكرتى أن تعيها ·

★ ★ ★

كان ذلك فى يوم من أيام الصيف القائظ ، التى يستيقظ الانسان فيها فيجد الشمس قد ملأت جوانب الحجرة ، حتى ليخيل اليه أن اليوم قد بدأ ظهرا ، وأن الشمس قد أشرقت فجأة من كبد السماء · فلا يحس المرء بذلك الصباح الرطب الندى ، بل يشتم من الجو حرارة خانقة تنذر بيوم من أيام الجحيم ·

بدأ النزاع بيننا ونحن على مائدة الافطار ، ولقد كنت حمقاء وقتئذ عندما مهدت السبيل لشيطان الشر أن يهبط بيننا ، اذ كنت أعلم قبل أن أبدأ الحديث أن ذلك الموضوع الذى سأطرقه سيؤدى بنا حتما الى الشجار ·· ومع ذلك فقد طرقته ·· فقد كنت متعبة الأعصاب ، منهوكة القوى ، عقب ذلك الأرق الذى أصابنى فى الليلة السابقة من فرط حرارة الجو ، وكنت أحس بضيق فى نفسى من ذلك الركود المميت الذى شمل كل ما حولى ·

وكان موضع الشجار هو اصرارى على أن نسافر الى الاسكندرية ·· واصراره على أنه لم يحن الوقت بعد للسفر ، فما زال لديه الكثير من الأعمال التى تستوجب بقاءه فى القاهرة · وكنت أعلم انه على حق فى قوله ، ولكننى اتهمته بأنه يأبى الا مضايقتى ، وانه يستطيع أن ينجز هذه الأعمال بالحضور الى القاهرة يوما أو يومين فى الأسبوع ·

وكان هادئا فى مناقشته معى كل الهدوء ·· ولكننى أعترف أنى قد استثرته حتى انتهى به الأمر الى أن يترك المائدة قبل أن يتم طعامه ·

ورأيته يتلكأ برهة قبل أن يغادر الدار ·· لعلى أعدل عن غضبى

فاسترضيه بكلمات طيبة ، ولكنى لم أفعل .. وأخيرا سمعت الباب يغلق ، وسمعت وقع قدميه تهبطان الدرج .. فشملنى السكون .. وأحسست بأن الدموع توشك أن تفر من مقلتى ، ولكنى جاهدت فى حبسها ، وتمالكت نفسى ، فقد كنت عازمة على ألا أدع الندم يتطرق الى ، وأن أصر على أنى لم أكن مخطئة فى خلق ذلك الشجار الذى لم يكن له أى مبرر ولا داع .

وتركت المائدة .. وكان على أن أبدأ القيام بتلك الأعمال التى اعتدت القيام بها بمساعدة الخدم فى كل يوم .. من نظافة الدار الى اعداد الغداء ، ولكنى كنت أحس بضيق وتبرم ، وأشعر بتعب يدفعنى الى الرقاد فى كسل واسترخاء .. فدلفت الى حجرة النوم واضطجعت على احدى الأرائك ، وقد أمسكت باحدى المجلات أقلبها بين يدى ، ولكنى قذفت بها بعد لحظات . ورفعت رأسى فأبصرت بصورتى فى المرآة وبدأت أتأملها ، ثم حانت منى التفاتة الى تلك الصورة المعلقة على الحائط والتى تمثلنى بجوار زوجى فى ثوب الزفاف . وقد أشرق وجهى بابتسامة مضيئة .. وشع من عينى بريق الأمل والهناءة .

وتنقل بصرى بين الصورتين : صورة الحائط . وصورة المرآة .. أو صورة الماضى ، وصورة الحاضر

يا للسنوات السبع الطوال ، لقد أطفأت بريق الأمل . ومحت ذلك الاشراق الذى كان يضىء جوانح النفس وجعلت مكانه السخط والتبرم ، فبدا الوجه فى كآبة وظلمة .

ترى ما مبعث ذلك الشىء الخفى الذى يثير فى نفسى القلق وعدم الرضاء ؟ وما علة ذلك الشىء الذى يدفعنى دائما الى اثارة الشجار ، حتى لقد أضحت حياتى لا تكاد تخلو لحظة من شقاق وجدال ؟ !

ان العلة لا شك كامنة فى نفسى ، والداء مستوطن فى قلبى .

وسبحت ببصرى من النافذة وشرد ذهنى بعيدا ينقب فى زوايا

الماضى حتى أستقر به المقام فى بقعة بعيدة نائية ٠٠ ما زالت تبدو للعين نضرة مزدهرة ٠٠ فما استطاعت كف القدم أن تذبل ورودها او تمحو شذاها ٠٠ فهى هى ٠٠ فى اشراقها ولآلائها ، رغم تلك الظلمات التى تراكمت حولها من مر الزمن وكر السنين ٠

كان ذلك منذ تسع سنين خلت ٠٠ وكنت وقتذاك طالبة فى الجامعة ٠٠ وكنت احيط نفسى بجو مليء بنشوة الأحلام ٠ الأحلام الذهبية البراقة التى تجيد فتاة فى الثامنة عشرة نسجها حـول نفسها ٠٠ عندما يتفتح قلبها للحب ٠٠ فلا تكاد تغرس فيه بذور الهوى حتى تراها قد أورقت وأينعت ٠٠ واضحت فى غمضة عين روضة دانية القطوف وارفة الظلال ٠

وكان هواى فى بادىء الأمـر هوى من جانب واحد ٠٠ وكنت أكتفى من الحبيب بالنظر اليه وسماع حديثه ٠٠ وكنت أجد فى ذلك كفايتى ولا أطمع فى شيء سوى ذلك ٠٠ اذ لم يكن يخطر لى أننى ساستطيع أن أثير اهتمامه من بين ذلك الجمع من الفتيات اللاتى كنت اجلس بينهن ٠٠ فقد كنا جميعـا لديه سـواء ، ولم يكن بى ما يميزنى عنهن مما يجعلنى أطمع فى أن أكون محط أنظاره ٠٠ وحتى لو كنت ممتازة بأى شيء فقد كنت على يقين من أنه لن يكون له صدى فى نفسه . اذ كان قليل الاهتمام بنا ٠٠ وكان يبدو لنا دائما أنه فى عجلة من أمره ، فلا يكاد يلقى محاضرته حتى يفر هاربا دون ان يعطينا فرصة لمناقشته أو محادثته ٠

ومما كان يزيد فى اعتقادى أنى لن أجد لذلك الحب صدى فى نفسه ، أنى لم أكن عاشقته الوحيدة ٠٠ فان كل الفتيات كن عاشقات له ٠٠ والواقع أنه كان من الخطأ أن يجعل مثله مدرسا لفتيات ٠٠ فقد كن لا يملكن الا أن يقعن فى حبه ٠٠ ومع ذلك ، وبالرغم من كل ما سبق ذكره ٠٠ وبالرغم من قناعتى من الحب بأوهامه وأحلامه .

فقد بدأت بالفعل أثير اهتمامه ، ولا أدرى كيف تطور الأمر ، ولكنى أذكر أنه قد بدأ بأن عدوت وراءه ذات مرة فاستوقفته لأسأله سؤالا تافها . فنظر الى بحنق وهز رأسه ، ثم سار فى طريقه . ومنذ ذلك اليوم أضحى يخصنى بشرحه ويكثر من التحدث الى ، اعتقادا منه أننى على جانب كبير من الغباء ، وكنت أنا أمعن فى ذلك لأسترعى اهتمامه ، وهكذا ظللت أستدرجه حتى وقع فى الشرك ٠

أجل ، لقد انقلب اهتمامه بالشرح لى الى الاهتمام بشخصى ، وبدأت أدرك جليا من نظرات عينيــه أنى قد أصبحت عنده « ذات موضوع » ٠

وتطورت العلاقات بيننا ، وأصبحنا أكثر من مدرس وتلميذته . حتى كان ذات يوم سألنى الزواج منــه ٠٠ فلم أصدق أذنى لفرط مفاجأتى بسؤاله ٠

وتمت الخطبة ٠٠ وأنا أحس أن العالم كله قد أضحى بين يدى ٠

وحدث بيننا ذات يوم بعض المشاحنات التافهة التى كثيرا ما تحدث بين الخطيبين ٠٠ ولا أدرى كيف تملكنى اذ ذاك شيطان الحمق ٠٠ فقذفت اليه بخاتم الخطوبة ٠

وقد يكون عذرى فى ذلك العمل الأحمق ٠٠ أنى لم أكن جادة فيه قط ٠٠ وأنى كنت على يقين من أنه سيعيده الى بعد يوم أو يومين ٠٠ ولكنى أدركت بعد ذلك أنى كنت خرقاء ٠٠ وأن الظروف كانت أكثر خرقا وجنونا ، فقد اضطر للسفر الى الخارج بعد يومين ٠٠ وكان سفره فجأة وعلى عجل ٠٠ ومنعت كلا منــا كبرياؤه من أن يخطو الى الآخر ٠٠ فسافر دون أن أودعه ٠

ولم تكن غيبته طويلة فقد عاد بعد بضعة أشهر ، ولكنه عندما عاد لم يكن وحيدا ، بل كانت معه امرأة ٠٠ أجــل ٠٠ كانت معه زوجته !

وليس من السهل ، أن يتصور المرء وقع الصدمة التى أصابتنى وتتذاك ·· فلقد كنت أشبه بصرح شامخ عالى الذرى رفيع البنيان ·· أصابه صدع من أساسه ·· فاذا هو قد دك فى الأرض دكا ·

ومرت الأيام ، وبدأت أعاود السير فى الحيـاة متحاملة على نفسى ·· وتقدم عند ذاك لخطبتى قريب لى كان قد شاهد القصة من أولها . وكنت أشعر انه يكن لى الكثير من الحب وان كنت لا أحمل له سوى صداقة خالصة ·

وفكرت كثيرا قبل أن اقبل زواجه ·· وانتهى بى التفكير الى قبوله . وأرتنى الأيام انى لم اخطىء بزواجه قط · فقد استطاع برفقه وحنانه ان يضمد جراح قلبى ، وأن ينسينى حبى الأول ·

ومرت السنون الأولى من زواجنـا وأنا أحس بالهنـاءة تملأ جوانحى ·· لقد كنا مثالا لزوجين سعيدين ·

ترى ماذا حل بى بعد ذلك فأفسد حياتى ، وملأنى بالملل والضيق؟!

لا أظننى أستطيع الاجابة عن ذلك بالضبط ·· ولكن الذى أذكره جيدا هو أن الملل الذى أصابنى ، والشقاق الذى تخلل حياتنا ، لم يبدأ الا بعد أن قطنا دارنا الجديدة ·· والتى تصادف وجودها بجوار دار صاحبى القديم هو وزوجته ·

انى لأذكر زيارتهما الأولى لنـا ·· وأذكر ذلك البغض الذى سست به يتدفق من قلبى نحو المرأة الأخرى ·

وأذكر ذلك السؤال الأحمق الذى خطر لى ·· ترى ماذا كان حدث لو لم ألق بالخاتم فى وجهه فى ذلك اليوم ·· وانتهى الأمر بنا الى الزواج ·

ولكن عدت سريعا الى نفسى واستنكرت ذلك الخاطر · انى هانئة بزواجى فيجب الا افسد حياتى بمثل تلك السخافات ·

وحاولت جهدى بعد ذلك الا أكثر من رؤيته ·· والا أجعل من

حطام الذكريات البائدة هيكلا يحجب ما أنا فيه من نعمة ، ويسلبني ما أنا فيه من رضا وقناعة ... ومع ذلك فقد بدأت حياتنا بعد ذلك يعتورها الجمود والسآمة .

أجل ! ان العلة في نفسي والداء في قلبي . فهذا الشجار الذى أثرته اليوم ، لم يكن هناك قط ما يدعو اليه .. فما كانت بى رغبة شديدة في الرحيل عن القاهرة ، لولا أن علمت أن الرجـل الآخر سيرحل بامرأته الى الاسكندرية .. ولست أستطيع الجزم بأنى كنت أرغب في الرحيل خلفه ، ولكن من المحقق اننى كنت أكره أن تتمتع المرأة الأخرى بما أنا محرومة منه . يا لى من حمقاء تحطم حياتها بيديها !! يجب على أن أقتلع نفسى من تلك الحشائش الدخيلة التى تحاول أن تفسد على زهرة حياتى .. يجب على أن اشعر بالقناعة والرضا ، وأن أسعد بزوجى العزيز .

وهنا أحسست برغبة فى النوم .. فتركت الأريكة ، واستلقيت على الفراش ، ورحت فى سبات عميق .

ورأيت فيمـا يرى النـائم أنى قد أحسست أن بالبـاب ضجة وضوضاء ، وأنى قد قفزت من فراشى فزعة خائفة .. وتملكنى خوف شديد وشعرت كأن يدا تعتصر قلبى .. لقد أحسست أن كارثة توشك أن تحل بى .. وكدت أتنبأ بما حدث قبل أن أراه . واندفعت الى الباب . فأبصرت رجالا يحملون جثة قد غطيت بملاءة بيضـاء .. وأخذوا يقتربون منى قليلا ، فبدرت منى صرخة فزع ، ولم أعد أبصر أمامى شيئا ، وسقطت مغشيا على . فقد كانت الصدمة أقوى من أن يحتملها بشر .

ووجدتنى بعد ذلك وحيدة فى الحيـاة ، كريشة فى مهب ريح عاصفة . وأنى قد فقدت زوجى الذى مسح بحنانه سابق دمعتى ، وأزال بعطفه قديم لوعتى .. ولكنى عدت فبطرت عليه .. وكفرت

بنعمته ، وأخذت أنغص ـ بسخافاتى ـ حياته وحياتى ·

ومرت الأيام وأنا أحس فى محنتى بوحشة شـديدة ·· وتلفت حولى فلم أجد سوى صاحبى القديم يمد يده فى رفق ليعيننى على السير فى الحياة . ويعرض على فى صمت عطفه وحبه ، ولم أستطع أن أرفض ، فقد كنت دائما أحس بضعف امامه ، ولم يكن هناك اسهل من تركى تلك الذكريات القديمة تندفع الى رأسى لكى الين له واجيبه الى كل ما يطلب ·

وأخيرا انتهى الأمر به الى الأنفصال عن امرأته واعادتها الى بلدتها ، وبذلك خلا لنا الجو ·· فأسرعنا باقتناص الفرصة التى اضعناها منذ سنين خلت ، وتم الزواج ·

وكنت احس بالزهو عندما أرى زوجى محط الابصار ، وأعلم انه ملكى أنا وحدى ·· لقد كان حافظا رونقه وفتنته ·· تماما كما كان يلقى علينا محاضرته . وكنا لا نفعل شيئا الا أن نحدق فى وجهه·

وكانت حياتى الجديدة ، حياة ضجيج ومرح ·· ملأى بالولائم والحفلات ، والنسـاء والرجال ، واستسغت الضجيج فى بادىء الأمر . ولكنى بدأت احس بالقلق منـــه ، وأخـذت أشعر بالغيرة تتملكنى من هؤلاء النسوة اللاتى يتطلعن الى زوجى ويحطن به

وخيل الى بعد ذلك أن حبه لى قد فقد الكثير من حدته ·· وأنى لم أعد لديه أكثر من متاع قديم ، وأنه دائم البحث عن متعة بين هؤلاء النساء اللاتى يحطن به هنا وهناك · وتذرعت بالصبر ، فقد كنت أشعر أنى ما زلت أحبه ·· وقلت لنفسى ان من الخطأ أن أضيق عليه الخناق ما دامت المسألة لا تعدو اللهو البرىء ·· حتى وجدته ذات يوم عقب وليمة اقمناها لبعض الأصـدقاء وقد احتضن احـــدى الصديقات بمنأى عن الأبصار

وكتمت ثورتى فى نفسى . ولم اخبره انى رأيته ·· حتى كنا فى

ذات يوم وقد أخذ يعنفنى لأنى لم انفذ بعض أوامره ، وهنا ثارت ثائرتى . فقد أحسست أنى قد أصبحت عنده لا أزيد على خادمة ، وبدأت أقارن فى نفسى بينه وبين زوجى الأول ، وبين حياتى اليوم وحياتى الماضية .

وصحت به وأخبرته أننى قد برمت بالعيش معه ، وانى اعلم كل أفعاله الشائنة ، وأنه مخلوق أنانى لا يرى غير نفسه .. وأنى لا أندم الآن على شيء كندمى على أننى لم اقدر زوجى الأول حق قدره .

ورأيته يبتسم قائلا فى سخرية :

– أيتها الحمقاء .. كفى هذرا . فأنا أعلم انك لو اعطيت الفرصة مرة أخرى لما اخترت سواى ... وعلى اية حال لا داعى للمقارنة ، لأنه لا محل لها ، فأنا حى وهو ميت .

وهنا ابصرت بشبح زوجى الراحل وقد قام بينى وبينه وأخذ يقترب منى فى سكون ودعة وقد علت شفتيه ابتسامته اللطيفة الهادئة ، فلم أتمالك نفسى أن ركعت أمامه وهتفت به :

– انى أريدك .. لا تذهب انى فى حاجة اليك .. انى لا اطيق الحياة بعيدة عنك .. انى لا أريد ذلك الرجل .. لا اريده .

ولكن الشبح أخذ يتلاشى فى هدوء حتى اختفى ، ولم يبق أمامى سوى الرجل الأنانى يبتسم ابتسامته الصفراء .. فارتميت على الأرض ناشجة باكية .

وهنا أحسست بيد تهزنى هزا عنيفا . ففتحت عينى فاذا الخادمة توقظنى وهى تصيح بى :

– استيقظى يا سيدتى .. ما بالك تبكين ؟

ونظرت الى الخادمة فى دهشة وسألتها عن سيدها فاخبرتنى انه لم يحضر بعد من عمله .. وتنفست الصعداء . فقد علمت أن كل ما مر بى من موت زوجى ، وزواجى بصاحبى الأول لم يكن الا حلما ، وأن

زوجى العزيز المحبوب لم يمسسه سوء ، فأقسمت فى نفسى أن أجعل من ذلك الحلم عبرة وموعظة ٠٠ وألا ادخر وسعا فى سبيل اسعاده ٠

ونهضت من الفراش وطلبت من الخادمة أن تنصرف الى عملها ، ولكنها لم تكد تخطو خطوة واحدة حتى سمعت بالباب ضجيجا ، واحسست بقشعريرة تسرى فى جسدى ٠

يا لله ٠٠ لشد ما كانت تشبه هذه الضوضاء والصخب ذلك الشىء الذى رأيته فى الحلم ٠٠ أترى الحلم سيتكرر مرة أخرى ؟ أترانى ما زلت نائمة ؟ أجل اننى فى حلم ، لا شك فى حلم ٠

واندفعت الى الباب فرأيت الرجال يحملون الجسد ، وقد لف فى الملاءة البيضاء ، ولم أتمالك أن صرخت فى فزع :

ـ انه حلم ٠٠ انه حلم ٠

وصمتت المرأة ثم نظرت الى نظرات حزينة ، وقالت فى صـوت اشبه بالأنين :

ـ انى أنتظر عودته يا سيدى ٠٠ اليس ما رأيته حلما ؟ ! أولم أزل نائمة ؟ !

وقفز الى ناظرى منظر ذلك الرجل الذى رأيته يعبر الطريق فى اطراق ووجوم ، وقد فاجأته احدى العربات المسرعة فطـوته تحت عجلاتها وتركته أشلاء محطمة

وأدرت وجهى لأخفى ما اعتراه من حزن وأسى ، وقلت فى صوت خافت :

ـ أجل يا سيدتى انه سيعود ٠ لقد كان كل ما رأيته حلما ٠ انك قطعا ما زلت نائمة ٠

امـــرأة محرومة

هــذه مذكرات امرأة مجنونة ٠٠ أو على الأصــح ٠٠ امرأة محرومة حاولت أن تعوض نفسها عن ذلك الحرمان الذى أصابتها به الحياة ٠ فنجحت فى ذلك الى أبعد حد ٠٠ وان كانت لم تسلم من أن يتهمها الناس بالجنون ٠٠ ولكن ماذا يضيرها أن يقولوا عنهــا مجنونة ٠٠ وان كانت قد استطاعت أن تمنح نفسها ما قد حرمتها الحياة اياه ٠

ولقد لمحت المرأة مرة أو مرتين ٠٠ وهى حبيسة فى دارها ٠٠ فى شرودها وذهولها ٠٠ ونحولها وذبولها ٠٠ فلم أشك قط فى أنها لا يمكن أن تكون الا مجنونة ٠٠ ثم انبئت بعد ذلك بوفاتها ٠٠ فلم يدهشنى النبأ ٠٠ فقد كانت أقرب الى الأموات منها الى الأحياء ٠٠ حتى لقد خيل الى أنها هيكل أو شــبح ٠٠ ثم استطعت بعد ذلك ــ بطريقة ما ــ أن أطلع على مذكرات اعتادت أن تكتبها من حين لآخر ٠٠ وأدهشنى أن تكتب المرأة مذكرات لهــا ٠٠ وأقبلت على قراءتها بلهفة شديدة ٠٠ فقد كان بى شوق الى أن أقرأ كتابة مجنون ٠٠ وخاصة هذه المرأة ٠٠ اذ كنت أود أن أعرف فيم كان ذهولها وشرودها ٠٠ وكيف كانت طريقة تفكيرها ٠

وأخيرا انتهيت من قراءة المذكرات ·· فلم أحاول أن أبرئ المرأة من الجنون ·· حتى لا أثير جدلا ·· ولكننى لم أستطع أن أمنع نفسى من التساؤل ·· ما هو الجنون ؟ وما هو الحد الفاصل بين العاقل والمجنون ؟ ·

ألم يحس أحدكم ذات مرة بذلك الألم الذى ينتابه عندما يشعر بعجز أمام شخص قوى يحاول ايذاءه وهو لا يملك أن يرد الأذى ؟·· ثم ألم يحس بألمه يزول وغضبه ينفثىء عندما يخلو الى نفسه ، فيتصور أنه قد حطم ذلك الشخص القوى ورد عن نفسه ذلك الأذى ؟ أجل ·· أولم يحس بالكثير من الراحة لمجرد ذلك التصور ؟

ألم يحاول أحدكم عندما يحرم متعة من المتع ، أو لذة من اللذات أن يتلمسها عن طريق الخيال ؟ ! ألم يعجز أحدكم ذات مرة عن نيل امرأة جذبه اغراؤها ·· فلجأ الى الخيال لينالها فيه ·· وأحس فى ذلك بالكثير من الرضاء ؟

هل اتهم نفسه حينذاك ·· أو اتهمه أحد ·· بأنه مجنون ؟ اذا فلم نتهم هذه المرأة بالجنون وهى لم تفعل أكثر مما يفعله امرؤ حاول أن يتلمس متعته عن طريق الخيال ·· ؟

على أية حال ·· مجنونة كانت أم غير مجنونة ·· اليكم مذكراتها فاقرأوها وقولوا ما شئتم ·· فما يضير الشاة سلخها بعد ذبحها :

• خمسة وثلاثون عاما ؟ يا للسنين التى تمر فلا تترك لى سوى الألم ، ولا تخلف لى غير الوحشة والفراغ ·· أية حياة تلك التى أحياها ·· ما أشبهنى بسائحة فى بيداء مقفرة جرداء ·· لا ماء فيها ولا رواء ، ولا ظل ولا ثمر ·· كلها سآمة فى سآمة وملل فى ملل ·· لا أبصر سوى الأمل السرابى ، واللمحات الكاذبة ·

انى أنتظر وأنتظر ·· وأحس بالعمر يتسرب ، والأعوام تولى متسللة ·· فتتملكنى لوعة ·· ويغشانى أسى أليم ·· ولكنى أتظاهر

بالرضا والقناعة ·· وماذا أستطيع غير ذلك ، وأنا لا أملك سوى التمنى والانتظار ! ·

انى امرأة محرومة ·· محرومة من الشىء الذى خلقت لأجله ، محرومة من نعمة الحياة التى تتوق اليها نفس كل أنثى · محرومة من الزوج والبنين ·· محرومة من كل شىء الا الفراغ والوحدة !

ومع ذلك فلا يسعنى سوى الصبر وادعاء السعادة ، خشية السخرية ، وأنا التى لو كان الأمر بيدها لصاحت بكل ما فى صدرها من لوعة مكبوتة : « أريد زوجا ·· أريد بنين ! » ·

خمسة وثلاثون عاما ·· مرت ثقيلة بطيئة ·· فما وهبت لى الا زيادة فى العمر . وزيادة فى الشعور بالحرمان ·· انى لأنظر فى المرآة فأرى هبتها جلية فى وجهى ·· ذبول ونحول وشحوب ·

لقد مللت الحياة ·· ومللت العمل ·· ما أسخف أولئك الذين يظنون أن المرأة يغنيها العمل عن الزواج ·· هم يظنون أن الزواج وسيلة للعيش ·· أو مورد للرزق ·· ما أشد حمقهم ! لقد كرهت ضجيج الحياة . وضجيج العمل ·· فهو ضجيج أجوف كالطبل ، قد خلا من موسيقى الالف وتغريد البنين · انى أحس بالرغبة فى أن أستريح من حياتى برهة ·· انى أتوق الى شىء من التغيير أيا كان

كم سرنى أن أنتقل الى هذه الدار النائية فى احدى الضواحى لا شك أن الصيف فيها سيكون خيرا منه فى جوف المدينة ، ولا شك أنى سأجد تسلية فى حديقتها الواسعة ·· انها تحتاج الى كثير من العناية والتنسيق ·· ثم ان أجرها أقل كثيرا من أجر الطابق الضيق الذى كنت أقطنه فى وسط المدينة ·· فهى من تلك الدور التى يعرض عنها السكان فتظل خالية ·· لا لشىء الا لمجرد ما يشيعه عنها الناس من أنها « مسكونة » . وما تجود به خيالاتهم عما رأوه فيها من جن وما صادفوه من أرواح وأشباح ·

ولم أتردد برهة فى الانتقال اليها ٠٠ وقلت لنفسى ضاحكة : من يدرى عساى أن أجد فى الجن والأرواح ما يؤنس وحدتى ٠٠ ويذهب وحشتى ٠

وسرتنى حياتى فى الدار الجديدة ٠٠ فقد أحسست بشىء من التغير ، وخاصة أننى قد بدأت عطلة الصيف ٠٠ فصممت على أن أتمتع بحياة جديدة ٠٠ وأن أنعم بالحديقة والهواء ٠٠ وألا أفعل شيئا سوى النوم والقراءة ٠

ومر الأسبوع الأول وأنا منهمكة مع البواب وامرأته فى تنظيف الدار من تلك الأتربة المتراكمة ٠٠ وفى تنسيق الحديقة وازالة الأعشاب والحشائش ٠٠ حتى ذهب عنها ذلك المنظر الموحش الذى كانت تبدو به ٠

ولا أستطيع أن أنكر ذلك الشعور بالرهبة الذى كان يتملكنى فى بادىء الأمر ٠٠ عندما كنت أذهب الى الفراش بعد أن أطفىء النور ٠٠ أو عندما أسمع فرقعة هينة أو صوتا يصدر من هنا أو من هناك من تلك الأصوات التى لا يخلو منها أى بيت ٠٠ كصوت نافذة يغلقها الهواء ٠٠ أو قطة تقفز فى الحديقة أو تمشى على السطح ٠٠ ولكن الرهبة أخذت تزول على مر الأيام ، وحل محلها اطمئنان الى كل ما فى الدار ٠

وفى ذات يوم جلست فى ركن ظليل بالحديقة ٠٠ وأخذت أتسلى بقراءة احدى القصص ، وقد جلست أمامى امرأة البواب ترتق بعض الثياب ٠٠ وأحسست بتعب من القراءة فألقيت بالكتاب جانبا ٠٠ وتثاءبت فى كسل ٠٠ وبدأت أجاذب المرأة أطراف الحديث ٠٠ حتى جرنا الحديث الى ذكر تلك الاشاعة التى يطلقها الناس على الدار وما يرجفون به من أنها « مسكونة » ٠٠ وكيف تسبب ذلك فى أن تمكث الدار مهجورة طوال تلك المدة ، وقالت المرأة :

ـ أنا لا أنكر يا سيدتى أن هناك دورا « مسكونة » ، ولكن الواقع أن هذه الدار بالذات مظلومة بين هذه الدور ، لأنى لم أر فيها شيئا قط ، وكل ما سمعته عنها قصة قديمة لست أدرى مداها من الصحة ، وهى أن صاحبها الأول قد شيدها لتكون سكنا له ولزوجته الجميلة المحبوبة ، وأن حياتهما كانت نموذجا لحياة هادئة ، وقد زادت سعادتهما بذلك الطفل الجميل الذى أنجباه والذى نما وملأ البيت تغريدا وترنيما ، وفى ذات يوم غابت الزوجة عن البيت ، ثم اكتشف الرجل أنها فرت مع عشيق لها تعودت أن تذهب اليه فى غفلة منه ، وكاد الرجل يصعق ، ولكنه تجلد وتمالك ، ووجد فى ولده العزاء كل العزاء ، وسرعان ما شفى الله جرحه وأذهب لوعته . وبدأ يجد السعادة فى حياته مع ابنه ، وأخذ يكرس لتربيته والعناية به كل وقته ، حتى كان ذات يوم وقد جلس الرجل فى الحديقة يقرأ ، فسمع فجأة صوت سقوط جسم يصطدم بالأرض وصرخة مدوية تشـــق السكون المخيم ، وقفز من مكانه كمن لدغته عقرب . فوجد الصبى قد هوى من الشرفة وهو يلهو ، فدق عنقه ومات لساعته .

وهجر الرجل الحزين الدار فلم يعد اليها قط ، ولا يدرى أحـد ما حل به بعد ذلك .. ربما قد جن .. وربما قد انتحر .. انهـا قصة قديمة .

وانتهت المرأة من قصتها . التى لا تدرى هى مداها من الصحة ، والتى قد تكون محض خرافة ، ومع ذلك فقـد انتابنى من سماعها شعور بالحزن عميق ، وأحسست بعطف شديد على الرجل الذى ربما لم يكن له وجود الا فى خيال المرأة ، أو فى خيال من قص عليهـا القصة .

ولا أدرى ما الذى جعل القصة تتجسم فى مخيلتى ، ولا أدرى ما الذى جعلنى أزج بنفسى بين أبطالها ، فأقارن بينى وبين الزوج

الخائنة التى وهبت لها الحياة كل ما حرمتنى اياه ٠٠ وهبت لها الزوج الوفى الأمين ، والابن الذى أتلهف عليه ٠٠ فركلت كل هذا بقدمها ، وفرت من عشها لا تلوى على شيء ٠ أترانى لو كنت مكانها ، أكنت أفعل ما فعلت ؟ وتخيلت الرجل أمامى يعدو فى الحديقة ضاحكا خلف الصبى ٠٠ وتخيلت أنهما زوجى وابنى ، فأحسست بنشوة عجيبة ، وقلت لنفسى : ان المرأة الهاربة لا شك بلهاء مخبولة ، كافرة بنعمة الله ٠

وفى هذه الليلة بدأت أحس أول تغير يطرأ على الدار ، وخيل الى انى أسمع وقع أقدام تسير فى الحجرات ٠٠ وأحسست بخوف شديد ، ولكنى وجدت الحجرات خالية فلم أشك أننى واهمة ٠

ومرت الأيام ، فازداد شعورى بالأصوات والهمسات حتى كانت تمر بى لحظات لا أشك فى خلالها أن هناك أشخاصا غيرى يتحركون فى الدار . ولكنى لا أبصرهم ، وفى ذات ليلة جلست أقرأ قبل النوم ، وسمعت الأصوات واضحة تمام الوضوح كأن أصحابها يجلسون فى الحجرة المجاورة ! ٠

وكان الصوت صوت طفل ورجل . وسمعت الطفل يقول : « غن لى أبوح ٠٠ يا أبوح » ٠

وأجابه الرجل متسائلا : « ثم تنام ؟ » ٠

ــ أجل ٠٠٠

وبدأ الرجل يغنى « أبوح يا أبوح كلب العرب مدبوح » ٠

وصاح الطفل فجأة متسائلا : « ومن الذى ذبحه » ؟ ٠

وتردد الرجل برهة قبل أن يجيب فى حيرة : « لقد وجدوه هكذا مذبوحا ٠٠ ولم يعثروا حتى الآن على القاتل » ٠

ورغم ما أصابنى من خوف وقتذاك لم أستطع أن أمنع نفسى من الضحك بصوت مرتفع ٠٠ وخيل الى أن الصوت قد وصل الى الطفل

والرجل ·· فقد كفا عن الحديث ·· وتسللت الى الغرفة المجاورة فلم أجد بها أحدا ! ·

ومنذ ذلك الحين ازداد يقينى بوجود الرجل والطفل ·· وبدأت أحس بهما فى كل مكان من الدار ·· وأخذت أنصت الى تلك الأحاديث التى تدور بينهما دون أن أرسل صـوتا أو حركة حتى لا يكفا عن الحديث ·· فقد كنت أحس من وجودهما بنشوة عجيبة ، مشوبة بشىء من الخوف ·

وخيل الى أنى قد بدأت لعبة خطرة ·· لعبة لم يحاولها أحد سواى ·· قد يكون الطرف الآخر فيها من صنع الوهم ، ولم أجد ما يمنع من أن أستمر فى اللعبة ، ما دمت أحس منها بمتعة ، ولكنى صممت على أن أحيط نفسى بالكتمان وألا أنبىء أحدا بتلك الأشباح التى أحس بحركاتها واسمع أصواتها ·· فقد خشيت أن أتهم بالجنون ·· على أنى لم أكن فى يوم ما أوفر عقلا منى الآن ·

وبدأت أحاول أنأبصر الرجل وابنه ، فما كنت أسمع همسا أو صوتا حتى أتسلل فى اتجاهه . ولكنى كنت لا أرى شيئا ، ومع ذلك فقد كنت واثقة من وجودهما ·· أجل ·· من المحال أن يكونا غير كائنين ·

واستيقظت ذات صباح على صوت أشبه بصوت دراجة صغيرة من دراجات الأطفال ذات العجلات الثلاث تتحرك على أرض الصالة ، فمددت رأسى قليلا لأبصر الصالة من خلال الباب ، فرأيت عجبا ·

لقد كان الطفل هناك ·· بدمه ولحمه ·· ووجنتيه المتوردتين وشعره الأصفر المدلى على جبينه ، وشعرت بغبطة شديدة ووجدتنى أناديه بصوت كالهمس . ولم يبد عليه انه سمعنى ، ولكنه اختفى مرة واحدة ·· أجل لقد اختفى ، دون أن أعرف كيف اختفى ، لقد كان هناك منذ ثانية ·· وفى الثانية التى تلتها لم يكن هناك ·· !

وفى ذلك اليوم طردت الخادمة ، فقد رغبت أن أكون فى الدار وحيدة ، ثم رأيته كثيرا بعد ذلك يروح ويغدو فى الدار ·· يضحك تارة ويصيح أخرى ·· ويبدأ يعبث بأثاث الدار ، ويقلب المقاعد ليتخذ منها (حميرا) يمتطيها ·

ولم يكن الطفل يرآنى أو يحس وجودى ، ولم يكن صوتى يصل الى سمعه ، ومع ذلك فقد أشعر أنه أصبح قطعة منى ولم أحاول أن أترك الدار بعد ذلك لحظة واحدة أو أقابل أحدا فقد سرتنى الحياة مع الطفل وأبيه ، وان كنت لم أبصر أباه بعد ·

وكنت أتهرب من رؤية البواب وزوجته ، ومنعت البستانى من أن يباشر عمله فى الحديقة ، فقد كان الطفل كثيرا ما يلهو بعمل بيوت من الرمل فيها ، وكنت أكره أن يراه الناس · وفى ذات يوم أقبلت على امرأة البواب ورأيتها تنظر الى نظرات بها كثير من الرأفة والحزن . وأنبأتنى المرأة أننى قد هزلت كثيرا وأننى يجب على الا أسجن نفسى فى الدار على هذه الحال ·

وشكرت المرأة وأنبأتها فى اقتضاب أنى أحس ميلا الى الوحدة ، وأنى لا أرغب فى الخروج ، وتركتنى وهى تهز رأسها فى دهشة وحيرة ·

ولم تكد تنصرف حتى قمت الى المرآة ، وكانت هذه أول مرة — منذ بدأت أنهمك فى حياتى الجديدة — أقف فيها أمام المرآة ، وراعتنى تلك الصورة التى أبدو عليها ·· وهالنى ذلك الاصفرار والشحوب ·· وذلك الشعر المهمل الشبيه بشعر امرأة مجنونة ، ومددت يدى الى المشط لأعيد تمشيطه وتصفيفه ، ونظرت فى المرآة فلم أجدنى وحيدة !

أجل لقد أبصرته لأول مرة ، وقد وقف بجوارى يمشط شعره هو الآخر ، وقد بدا حلو التقاطيع ، جذاب الملامح ، طويل القامة ، متين

البنيان ، واحسست بفرحة لا توصف ، ثم التفت اليه فلم اجد شيئا ، وأعدت النظر الى المرآة فوجدت الصورة قد ذهبت أيضا ٠

ثم اعتدت أن أبصره بعد ذلك ٠٠ هو وابنه ٠ ووجدتنى اكن لهما حبا عجيبا ٠ اجل ! لقد احببت هذين « الشبه كائنين » اكثر ممـا احببت اى « كائن » فى هذه الحياة ٠

وحاولت أن أتحدث اليهما ٠٠ ولكنهما لم يسمعانى ٠٠ وحاولت أن أنظر فى أعينهما فلم يبصرانى ٠٠ وعندما كنت أتقـدم لألمسهما كانا يتطايران فى الهواء ٠

وحدث ذات يوم وقد جلست فى احدى الحجرات أن رأيت الطفل يدخل الى الشرفة ويمد رأسه من فوق الحاجز ٠ وتذكرت القصة التى سمعتها من امرأة البواب ، وكيف سقط الطفل من الشرفة فدق عنقه ٠٠ فصحت به ناهرة اياه كيلا يطل من الشرفة ، وكم كانت دهشتى شديدة عندما رأيت الصبى يسمع صيحتى فيلتفت الى ثم يعود الى داخل الحجرة ٠

ومنذ ذلك الوقت والصـبى يعرفنى تمام المعرفة ويبصرنى كما أبصره ، ويزدجر اذا ما زجرته ، ويطيع اذا ما أمرته ٠٠ بل أكثر من ذلك أنه كان يناديني « ماما » ويا للمتعة العجيبة التى كنت احس بها وقتئذ ٠

ولم تمض فترة قصيرة حتى بدأ الرجل نفسـه يحس وجودى ويرانى كما أراه ، وكان ذلك فى احـدى الأمسيات وقد جلس فى الحديقة فى سكون الليل ، وشرد ذهنه ، فراح فى تفكير عميق ، وخيل الى أنى ألمح فى قسماته حزنا ولوعة ، لم أشك فى أنه يفكر فى امرأته الهاربة ، واحسست نحوه حنينا ، وتمنيت لو استطعت أن أنسيه اياها ، وأن أعوضه عن حبها بما يخفف من لوعته ويذهب من حزنه ٠

ورغم معرفتي ان صوتي لا يمكن أن يصل اليه ، وانني لو لمسته لتطاير وتحلل . فقد وجدتني أندفع اليه بقوة الحنان الذى يجيش في صدرى ، ولمست ذراعه . فلم يتطاير في هذه المرة ، بل انتفض ورفع الى رأسه فى دهشة .

ومددت يدى الى رأسه اتحسسه برفق ، فرأيته قد استراح الى وزالت عنه تلك الدهشة . ونظر الى كأنني لست غريبة عنه ، أو كأنى امرأته المحبوبة التى ما فارقته وما هجرته .

وفى الصباح سمعت امرأة البواب تطرق الباب . وترددت برهة قبل أن افتح لها ، فقد كنت لا أريد أن أرى أحـدا .. وكنت أحس كراهية شديدة للناس . ولكن المرأة المجنونة ألحت فى طرقها ، فقمت الى الباب غاضبة وسألتها عما تريد ، ونظـرت الى المرأة وقد بدا عليها الفزع كأنما قد أبصرت شبحا مخيفا ، وتوسلت الى أن أرحم نفسى وأن أزور طبيبا . ولكنى صحت بها أن تغرب عن وجهى وأغلقت الباب خلفها بشدة . وعادت المرأة أدراجها ووصل الى صوتها وهى تقول لزوجها : « مسكينة .. لقد أصبحت مجنونة » .

مجنونة ! أنا مجنونة ؟ أيها الحمقى .. اليكم عنى . أتركونى حيث أنا .. ماذا يهمنى منكم .. ومن دنياكم .. بعد لحظة أو بعد يوم .. أو بعد عام .. ستكفون عن الحياة .. وسأكف انا كذلك .. وبعد حين من الدهر . ستكف الحياة نفسها عن أن تسرى فى هذا الكون وسنصبح كلنا كهـؤلاء الذين أعيش معهم والذين أعطونى ما حرمتمونى ومنحونى ما بخلتم به علي .

ماذا أخشى ولم أعد بعد محرومة .. ؟ وماذا تخشون على شرا من الحرمان الذى كنت فيــه .. هبونى كما تقولون مجنونة ماذا يضيرنى من الجنون وقد وهب لى ما حرمت . وهب لى الزوج والابن .. لو كنت حقا مجنونة كما تقولون .. » فانعم بالجنون وطوبى للمجانين » ! ..

امــرأة.. ورمـــاد

الرماد هو ذلك الشيء البـارد الخامد الذى يتخلف عن جمرة كانت تتأجج بالنيران وتسطع بالضوء ٠٠ وظل من حولها يجدون فيها دفئا وهداية ٠٠ وكلما انبعثت منها حرارة أو شع منها ضياء ٠٠ خلف مكانه ذلك الشيء ـ أو اللاشيء ـ الذى نسميه رمادا ٠ وهكذا تظل الجمرة تعطي عصارة قلبها وتهب خلاصة روحها دون أن تسترد مقابلا سوى الخمود لنفسها والرضا لمن حولها ٠٠ وهكذا تستبدل بالحياة فناء ، وبالضوء ظلمة ٠٠ وتمر بها الأيام ٠٠ وهى تتضاءل وتتضاءل ٠٠ حتى يحتويها الليـل ذات مرة فاذا هى قد أضحت خامدة باردة ، واذا كل ما فيها قد أضحى رمادا فى رماد ٠

هذا هو الرماد بمعناه المألوف ٠٠ أما فى هـذه القصة ، فهو لا يعنى سوى امرأة ٠٠ أو بقايا امرأة ٠٠ لشد ما راعنى ذلك الشبه بينها وبين الرماد الذى يتخلف عن الجمرة التى وهبت من حولها ضوء نفسها وحرارة قلبها ، ثم تركوها بعد أن خبا منها الضـوء وخمدت فيها الحرارة ٠٠ كأنها هشيم تذروه الرياح ٠

كنا صحبة من الخلان نتسامر فى منتدى عام ، وعرج بنا الحديث على ذكر البطولة والأبطال ، وذكر أحدنا ما قرأه عن « توماس كارليل » من وضع البطل فى صورة اله وفى صورة نبى وفى صورة قائد ٠٠ فسمعت آخر يقاطعه :

ــ هل تحدث كارليل عن البطل فى صورة خياطة ؟

ونظر الى المتحدث شزرا وقال هازئا :

ــ أتهزل ؟

ولكن الآخر أجابه فى دهشة :

ــ كلا ٠٠ ليس فى قولى شىء من الهزل ، وأقسم أن كارليل لو عاش حتى سمع قصة هذه الخياطة ، لما توانى عن أن يضيفها الى قائمة أبطاله ٠

وصمت لحظة حتى تطلعنا اليه بأبصارنا وأصخنا له ٠٠ ثم بدأ الحديث :

ــ هى مدموازيل ايرين ٠٠ وقد رأيتها لأول مرة عندما كنت خاطبا ، وقد رافقت خطيبتى اليها لقياس بعض البروفات ٠٠ وأقول الحق ان مرآها قد خذلنى خذلانا شديدا ٠٠ فما كنت أتوقع قط أن أراها كما رأيت ٠٠ اذ كان الاسم ٠٠ « مدموازيل » ٠٠ يوحى الى بأنى سأرى فتاة جميلة لا تقل جمالا بأية حال عن سميتها « مدام ايرين » بائعة العطور ولكننى لم أكد أبصرها ، حتى همست فى أذن خطيبتى فى دهشة : « أهذه مدموازيل ؟ ! » ٠٠ وكان لى العذر ، فقد رأيت أمامى امرأة شمطاء ، وخط الشيب شعرها ، وملأت التجاعيد وجهها ، وبدت العروق خضراء بارزة فى يديها !

وتحدثت الينا ، فوجدتها لطيفة المجالسة ، حلوة الحديث ، لا يبارح السرور وجهها ، ولا تفارق البسمة شفتيها ، فهى مثل لامرأة قريرة العين ، مغتبطة النفس ٠

وترددت عليها بعد ذلك بضع مرات مع خطيبتى ٠٠ فزادت بيننا أواصر الصداقة ٠٠ وكنت أحس من فرط رقتها وكرم نفسها ٠٠ أنها ليست مجرد حائكة ثياب ٠٠ بل أكثر من هذا ٠٠ كنت أراها : امرأة مهذبة ٠

وفى ذات يوم – قبيل الزفاف – ذهبت اليها وحيدا لأسالها عما اذا كان ثوب الزفاف قد تم صنعه ٠٠ فقابلتنى كعادتها هاشة باشة ، وجلست تتحدث الى ، ثم قالت :

– ستسر عروسك بثوبها أيما سرور . فقد حاولت جهدى أن اتقن صنعه ، فجاء آية فى الابداع ٠ والواقع انى لا أتقن شيئا كما أتقن صنع ثياب الزفاف ٠٠ لأننى أجد لذة فى صنعها ٠

وصمتت المرأة ، وبدأ عليها شيء من شرود الذهن ٠٠ ولم أدر كيف أعلق على قولها ، وان كان قد جال برأسى أن لذتها فى صنع ثياب الزفاف شيء طبيعى ، فأغلب ظنى انهـا تستعيض بذلك عما حرمتها الأيام اياه ٠٠ وانها تحيى بها بعض آمال ساورتها فيما مضى من العمر ٠٠ ولكن الظروف القاسية لم تجعل منها أكثر من آمال ٠٠ وخيل الى أن تلك اللذة التى تجدها فى صنع ثياب الزفاف أشبه شيء بتلك اللذة التى يجدها مصور فقد حبيبته فعكف على رسم صورتها ٠٠ ليستعين بذلك على اطفاء جمرة فى قلبه وحرقة فؤاده ٠

ورأيت الصمت قد طال ٠٠ فلم أجد بدا من قول بضع كلمات أزيل بها شرود المرأة . فقلت لها مستضحكا :

– لا بد أنك قد صنعت منها المئات ٠

ولكن المرأة لم تضحك ، بل هزت رأسها ببطء وأجابت بصوت خفيض :

– أجل ٠٠ لقد صنعت المئات ٠٠ وكان أولها ذلك الثوب الذى ما زال مستقرا دون أن تمتد اليه يد حتى وهت خيوطه ورق نسيجه !

وأدهشتنى رنة الحزن التى بدت واضحة فى صوت المرأة وهى التى ما رأيتها قط الا مازحة ضاحكة ·· وخيل الى أنى قد أثرت فى نفسها مرارة ذكرى ، ونكأت فى قلبها قرحا ، وأدميت جرحا ، وخشيت أن أجيبها بكلمات قد تزيد من لوعتها ، فالتزمت جانب الصمت، خاصة وأنى رأيت منها ميلا للفضفضة ، فتركتها تتحدث ·· لعل حديثها يعود بها الى سابق مرحها ·

وبدأت المرأة تقص على قصة حياتها ·· قالت :

ـ ثلاثون عاما قد مضت على ذلك الحادث المشئوم ·· وكان ذلك فى عام ١٩١٥ وقد حملوا الينا جثة أبى بعد أن دهمته احدى العربات وهو يحاول انقاذ طفلة تعبر الطريق ·· فنجح فى انقاذ الطفلة ولكنه لم ينقذ نفسه ·· وانى لاذكر كيف شعرت وقتذاك بالوحدة والوحشة ، وكيف أحسست بالظلمات تكتنفنى من كل جانب ، وأنا اقف بجوار أخوى الصغيرين ولا عائل لهما سواى ـ ان صح أن مثلى يمكن أن تكون عائلا ـ فقد توفيت أمنا منذ بضع سنوات ·· وكنت أقوم أنا لأخوى مقام الأم ، ولكنى أحسست بعد ذاك اننى لا بد أن أكون أما وأبا ·

وتحاملت على نفسى وصممت على أن أكون قوية شجاعة · ولا اظننى كنت أستطيع السير وقتذاك ·· لولا تلك القوة الخفية التى كنت أحس بها تشد أزرى · · ولولا ذلك الاحساس بأن هناك من يعيننى بحبه ، ويؤمن خوفى ، ويؤنس وحشتى ·

وأذكر كيف التقيت به بعد الكارثة ·· وكيف ضمنى اليه فى رفق وحنان وسألنى الزواج ، فأنبأته أن لا بد لنا من الانتظار حتى يبلغ الصبى أشده ويستطيع أن يعول نفسه فى الحياة ·· ونظر الى دهشا وأنبأنى أنه يستطيع أن يتولى أمرنا جميعا ·· ولكنى ـ رغم أنه لم يكن أحب الى نفسى من تلك الأمنية ـ لم أكن حمقاء حتى أندفع

معه ، فاحمله عبء زوجة وصبيين ·· اذ كنت أعلم أن تخطه الحدود لا يكاد يكفينا نحن الاثنين ·· وكنت أعلم أن ذلك المبلغ الذى يخصنى من معاش أبى ، والذى كنا فى أشـد الحاجة اليه ، سيفقد بمجرد زواجى . فلم اود أن أكون حملا ينقض ظهره ·· وصممت على أن نتذرع بالصبر حتى أصبح فى غير حاجة الى ما أصيبه من معاش ·

ورايت اليأس قد تملك نفســه ولكنى احسست به يضمنى بين ذراعيه ويهمس فى أذنى : سأنتظر ما دمت تريدين ذلك ·

ومرت الأيام ، وبدأت أعمل بالتدريج فى حياكة الثياب فقد كنت ماهرة فى صنعها ·· ولقد رأيت مطالب الحياة تتطلب اكثر مما كنت أظن ·· وكنت لا ابخل بشىء قط على الصغيرين : الصبى والصبية ·· وكانت الصبية رقيقة الجسد وفى حاجة الى عناية شديدة ·· وكانت تحتاج من آن لآخر الى زيارة طبيب ، أو شراء دواء . وكنت أرى بالصبى ميلا شديدا الى صنع التماثيل ·· وكنت أبصر فى عينيه شعاع نبوغ وطموح ، فصممت على الا أجعله يخبو ·· بل تعهدته بالعناية والرعاية ·· ولم ابخل بشراء كل ما يلزمه من أدوات النحت ·

وانصرم عاما ١٦ و ١٧ وبلغ الصبى الخامسة عشرة ·· وبلغت الصبية الحادية عشرة ، وكنت اقنع من صاحبى بلقاء جميل بين حين وآخر ·· نتمتع فيه بأحلامنا العذبة ·· حتى التقيت به ذات يوم ، فأنبأنى فى سكون أنه سيذهب الى ميدان القتال ·

كم اذكر ذلك اليوم ·· انه منقـوش فى مخيلتى كانما حـدث بالأمس فقط ·· وهل أستطيع أن أنسى ذلك الدفء الذى أحسست به فى صدره ، وانفاسه التى كانت تلهب وجهى . وصوته الذى يهمس فى اذنى : كم انت جميلة ·· وكم أحبك ·· كم اكره أن اتركك وحيدة فى هذه الحياة العاصفة ·· كم أود لو احتويتك فى بيت صغير جميل حيث اضعك موضع السيدة وأومنك من خوف وأريحك من عناء !

ولم اكن احس بلهفة الى شيء قدر لهفتى الى ذلك الشيء الذى همس به فى أذنى .. ذلك البيت الصغير الجميل الذى يحدثنى عنه ، والذى سيضعنى فيه موضع السيدة .. بل لقد كنت أرى السيدة شيئا كثيرا .. وكنت احس انه يكفينى جدا أن أكون موضع الخادمة .. ما دمت خادمته هو .. هو وحده .

وافترقنا بعد ذلك .. وبدأت أتلمس التعزية عن فراقه بطريقة قد تكون عجيبة بعض الشيء ، ولكنها كانت لى خير سلوان .. لقد بدأت أصنع لنفسى ثوب زفاف .. وكنت أسترق الساعات فأخلو الى نفسى وأنهمك فى صنعه .. وقد تملكتنى نشوة عجيبة وشملنى جو من الهناءة ممتع لذيذ ، لكأن للثوب أجنحة تطير به الى عالم الغد الجميل والمستقبل الحلو .. فأبصر بنفسى بين أحضانه وتحت أنفاسه : زوجين سعيدين .

وأخيرا انتهت الحرب .. ودقت نواقيس السلام .. وعاد الى سالما .

ولم أستطع أن أغالب تلك الدموع التى انهمرت من عينى وقد احتوانى بين ذراعيه بعد طول غيبة . ومضت برهة طويلة دون أن ينبس أحدنا ببنت شفة ، وقد وضعت رأسى فوق صدره وأحسست بأصابعه تتخلل شعرى برفق وهدوء .. وأخيرا سمعته يهمس :

ـ لقد طال بنا الانتظار .

فأجبته بصوت تفيض منه السعادة :

ـ أجل .. وليس بنا من حاجة الى الانتظار بعد .

ولم اكن أشك لحظة عندما قلت له ذلك .. أن هناك ما يستدعى انتظارنا فقد أتم الصبى دراسته الثانوية .. وهو يستطيع بعد ذلك أن يحصل على عمل يعول به نفسه .

وعلى ذلك .. فقد اقبل على الصبى بعد بضعة أيام .. وجلس

الى ممسكا بيدى برفق بين يديه ، ورفع الى وجهه الهادئ ، وعيناه تتالقان ببريق الطموح ، وتوحيان الى الناظر اليهما أن صاحبهما نابغة عبقرى ·· ثم سالنى فى هدوء ورقة أن كان يمكنه الالتحاق بمدرسة الفنون ، حتى يتلقى أصول النحت وحتى يصير مثالا عظيما فلا يقضى عمره فى عمل مغمور ·

ووجمت برهة ·· ثم أخبرته أنى سأنبئه فى الغد ·

وفى المساء التقيت بصاحبى ، فأنبأته بالأمر ، وسألته ، وفى نفسى لوعة شديدة ، ان كان يمكننا الانتظار عاما آخر حتى ينتهى الصبى من دراسته الأخيرة ·

ونظر الى صاحبى فى ذهول ويأس ثم قال :

ـ عاما آخر ! أتظنين أننا قد كتبت علينا التضحية فى سبيل الآخرين ؟ ان العمر أقصر من أن نضيعه عاما فعاما ·

ثم غادرنى فى سكون والحزن يفيض من نفسه ·

وتملكتنى اذ ذاك لوعة ·· وعصف بى الأسى ·· فقد ساءنى أن أسبب له ذلك الحزن ·· وتبينت انه لو كان الأمر يقتصر على أن أضحى بنفسى ·· لاستطعت احتمـــاله · أما أن أشركه فى تلك التضحية ·· فذلك ما لا أقوى عليه ·

عزمت على أن أنبئ الصبى بحقيقة الأمر ·· وأن أســأله أن يقنع الآن بالعمــل ·· ومع ذلك فقــد كنت أحس بالخجل من أن أقول له ذلك ·· ورأيتنى أتهرب من لقائه فى تلك الليلة ·

وفى الصباح لم أستطع لقاءه ، فقد خرج قبل أن أستيقظ فحمدت الله لأننى كنت لا أدرى كيف تطاوعنى نفسى على أن أصدمه بحديثى ·· وقبيل الظهر رأيته قد عاد الى الدار ·· أقبــل على باسما ، فأحسست بالاكتئاب يملؤنى ، فما تعودت قط أن أرفض له طلبا مهما

كان تافهـا ٠٠ فكيف بى وانا احاول أن أطفىء ذلك الشعـاع من الطموح الذى يضىء نفسه ٠

ورأيت الصبى قد مد يده الى بحفنة من النقود ٠٠ فسألته دهشة من أين له بها ، فأنبأني ببساطة انه قد سمع حديث الأمس وانه قد دسلم عمله منذ اليوم ٠

وأحسست برجفة تنتابنى ٠٠ ووجدتنى أسأله هامسة :

ـ ولكن هذا مبلغ كبير !

وأجابنى برفق وحنان :

ـ لقد بعت كل ما أملكه من أدوات النحت ، وما لدى من تماثيل ٠٠ حتى اقدمه لك هدية زواجك ٠

وهنا لم أستطع أن امنع دمعتين طفرتا من عينى ، واحتضنت الصبى ٠٠ وقد أحسست أن تضحيتى قد تضاءلت بجانب تضحيته

وأمسكت بالنقـود ٠٠ وغادرت الدار ٠٠ فاستعدت للصـبى ادواته ، وصممت على أن يتم دراسته ٠

وعندما التقيت بصاحبى أنبأته بما فعلت فنظر الى نظرته الى مجنونة ، وقال فى يأس انه لن ينتظر أكثر من ذلك ٠٠ ثم انصرف عنى دون أن يلقى الى كلمة وداع ٠

وطالت غيبته ٠٠ حتى فوجئت ذات يوم بأن قرأت فى احدى الصحف نبأ خطبته ٠٠ وانه سيتزوج بعد اسبوع !

وفى يوم زواجه أحسست بدافع لا يقاوم يدفعنى الى أن اذهب الى الكنيسة ، وهناك اندسست بين الناس دون أن يشعر بى أحـد ، وتطلعت بعينى فأبصرت بالعـروس وقد ارتدت ثوب الزفاف الذى طالما حلمت به ٠٠ ونظرت الى الثوب الناصع ، وتذكرت ذلك الثوب الذى يرقد فى مضجعه ، ثم تسللت عائدة الى البيت كأننى شبح

يسرى

ومرت الأيام ٠٠ وتزوج الصبى ورحل الى داره ٠٠ ثم تزوجت الصبية ورحلت الى دارها ، وبقيت وحيدة لا يؤنسنى الا ذلك الثوب الذى صنعته فى غمرة الأحلام ٠

وانى لأجلس الى نفسى أحيـانا فأفكر فى مبلغ ما فعلت من تضحية ٠٠ فلا اكاد أحس أنى فعلت شيئا ٠٠ فقد تمتعت بالحب فى زمن الصبا ، وحييت بعد ذلك حياة مستقرة هانئة هادئة ٠٠ فما بت ليلة على الطوى ، وما استلقيت مرة على قارعة الطريق ارتجف من البرد دون أن يستر جسدى سوى خرق بالية ٠

أجل ٠٠ عندما افكر فى أولئك الذين يتألمون ويتعذبون ٠٠ أولئك المساكين الذين شردتهم الحياة فهاموا على وجوههم ٠٠ أولئك الذين أهلكهم البؤس واضنتهم المسغبة ٠٠ الذين لم يروا فى دنياهم حسنة ولا أحسوا متعة ٠٠ عندما أفكر فى اليتامى الذين روعتهم وحشة الحياة . والذين عاشوا فيها غرباء لم يرو نفوسهم الصادية عطف ولا سقى قلوبهم الظامئة حب ولا حنان ٠ عنـدما افكر فى أولئك الضالين الذين أدمى شوك الضلال نفوسهم ، وأحرق جمر الرذيلة قلوبهم ، الذين لم يذوقوا قط حلاوة الايمان ولا لذة اليقين ٠

عندما افكر فى كل هؤلاء ، وعندما أقارن نفسى بأولئـك الذين يستشهدون فى سبيل الله وفى سبيل أوطانهم ، أولئك الذين يضحون بأنفسهم لكى يهيئوا لغيرهم حياة أفضل ٠٠ عندما اقارن نفسى بهم واقارن تضحيتى بتضحيتهم أجدنى قد تضاءلت واجدها قد تضاءلت ٠٠ حتى أحس أننى لم افعل شيئا ٠

★ ★ ★

وصمتت المرأة ورأيت المرح قد عاد الى وجهها مرة اخرى ، ومع ذلك فقد احسست الحـزن يملأ نفسى ، وأكبرت فيها تضحيتها ثم

انكارها التضحية ، ووجدتنى أشعر باللوعة رغم انها قد حاولت أن تبدو راضية قانعة ، وتظهر أنها لم تفعل شيئا ٠

ونظـــرت اليهـــا ، والى شـــعرها الأبيض ووجهها الذى ملأته التجاعيد ، وتذكرت الجمرة التى وهبت لمن حولها دفءا وهداية ثم خمدت فأضحت رمادا فى رماد ٠

★ ★ ★

وسكت صاحبى ، فقد انتهت قصته ٠

ولكننى وجدت كهلا كان يجلس بجوارنا ، وكان قد سمع القصة من أولها الى آخرها ورأيته يدنو منا وأخذ يقول لصاحبى :

ـ لشد ما أخطأت الظن يا سيدى ، ان المرأة التى ذكرت قصتها ليست رمادا ، ولن تكون قط رمادا ٠٠ اتعرف الجمرة التى يكسوها الرماد وما زال جوفها مضيئا مشتعلا ؟ انها جمرة من ذلك النوع ٠٠ يخيل للناظر اليها أنها رماد ، وما زال النور يضىء نفسها ، والحرارة تدفىء قلبها ٠

وصمت الرجل ، ثم أشار الى نفسه وقال :

ـ الرماد هنا ٠٠ الرماد هو ذلك الجسد الذى لم يستطع الصبر ولم يحتمل التضحية ٠٠ ومل الانتظار ٠٠ فترك حبيبة العمر واقبل على أخرى ٠٠ ماتت بعد فترة من الزمان ٠٠ ورأى نفسه يسير بعد ذلك وحيدا ٠٠ كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى

لقد كان الرجل هو صاحب المرأة الذى هجرها !

أجل ٠ لقد كان هو ٠٠ الرماد ٠٠ !

امــرأة وظــلال

ما فتن الانسان شيء في هذه الحياة كالظلال ، وأعني بالظلال ، ظلال الحقائق التي يمر بها المرء ، فتسعده أو تشقيه ، وتضحكه أو تبكيه ٠٠ ثم يطويها الزمن في مره ، وتنأى بها الأيام في كرها ٠٠ فلا يعود يبصر منها الا ظلالا داكنة خلفتها تلك الحقائق بعد أن نأى بها الزمن ٠

ينظر المرء الى هذه الظلال فيحس منها بمتعة ، ويفتنه مرآها كما لم تفتنه الحقائق نفسها التي خلفت هذه الظلال ٠

★ ★ ★

وانى لأعرف نوعا من الناس ، قد لا اكون مخطئا اذا سميتهم هواة ظلال ، وعشاق ذكريات ، فهم يعيشون دائما فيما مضى وما غبر ٠٠ لا يكادون يحســون بحاضرهم الا اذا طوته الأيام فأصبح ماضيا ، ولا يشعرون بالمتعة الا بعد أن تصبح ذكرى ، ولا يحسون بلهفة على مباشرة المتع ٠٠ ولكن يحسون بلهفــة على العيش في ظلالها ٠٠ واغلب ظني أن هذه المرأة التي سأسرد قصتها هي واحدة من هذا النوع الذي نسميه : هواة الظلال ٠

كان الوقت قبيل الغـروب ، وقد مالت الشمس نحـو الأفق ، وأرسلت أشعتها على الأوراق الصغيرة المتكاثفة ، والزهور الحمراء التى كست أشجار البانسيانس الممتدة على الطريق القائم على احدى ضفتى النيل فى الجزيرة ٠٠ فبدت الأشجار كأنها رؤوس براكين مشتعلة ٠

وفى احـدى الحجرات المطلة على الطريق ٠٠ تسللت الأشعة الحمراء من بين أوراق شجرة قائمة أمام الدار ونفذت من خـلال النافذة الواسعة ، فصبغت الحجرة بلون أرجوانى ، وسقطت ظلال الأوراق على أرض الحجرة وعلى جدرانها وأثاثها ٠٠ وقد بدت فى سكونها ولونها الداكن ، كأنما قد رسمتها ريشة فنان ، لولا ذلك الاهتزاز الخفيف الذى تبديه عندما تهب على الأوراق نسمة هادئة من أنفاس الصيف الناعمة الرقيقة ٠

وعلى أحد المقاعد جلست امرأة ٠٠ ما زال يبدو عليها الكثير من جمال الصبا ونضارة الشباب ٠٠ وقد مدت سـاقيها ، ومالت برأسها الى الوراء ، وسبح بصرها فى الأفق البعيد ٠٠ وبدا وجهها من خلال الظلال التى تسللت من النافذة ، وقد علته لمحـة من أسى ، ومسحة من حزن واكتئاب ٠٠ وامسكت بين أصـابعها بقطعة من الصوف وابرتين طويلتين ، ثم تركت يديها تسقطان فى حجرها فى كسل واسترخاء ٠٠

وأخذت المرأة تستعيد فى ذهنها ما حدث منذ لحظات ، وتذكرت كيف تركت تلك المتعة التى كانت تتلهف عليهـا ، تتسرب من بين أصابعها ٠٠ واكتفت منها بذكريات باهتة تعيش فى ظلالها ، لأنها تعودت حياة الظلال ٠

تذكرت كيف فاجأها بدخوله عليها ، وكيف انبأها فى صـوت هامس متلهف أن امرأته قد ماتت ٠٠ لقد تركها مشدوهة مأخوذة ٠٠

فهى لم تكن تتوقع قط أن يعود اليها ولا أن يخبرها أنه قد أضحى حرا طليقا ٠٠ وبدا وجهها شاحبا وسقطت يداها على ساقيها ولم تنبس ببنت شفة ٠

وأمسك الرجل بيديها بين راحتيه . ثم قال لها فى رفق :

ــ لم لا تتكلمين ؟ لم هذا الذهول ؟ ترى هل فاجأتك ؟

ــ وأى مفاجأة !!

ــ كان يجب على أن أكتب اليك . ولكننى لم أستطع الانتظار . ولم أكن افكر فى شىء سوى المجىء اليك . فقد كنت أبصرك بعين الوهم جالسة فى مقعدك هذا . وقد بدا وجهك من خلال الظلال تماما كما يبدو الآن ٠

ونظرت اليه بعين تائهة . وذهنها ما زال فى شروده وذهوله . وحاولت أن تتمالك مشاعرها . وقالت فى هدوء :

ــ أجــل ٠ لقــد فاجأتنى عودتك . كما يفاجأ كل امرىء يبصر بالظلال تتجسم فتعود مرة أخرى حقائق ملموسة ٠ لقد عودت نفسى حياة الوحدة فتعودتها واطمأنت اليها . وطردت من مخيلتى كل أمل فى عودتك . وبدأت أشعر بالهدوء والاستقرار ٠

واقترب منها الرجل وأمسك بوجهها بين كفيه ٠٠ وتأمله برهة ٠٠ ثم اقترب بشفتيه من شفتيها . وضغط عليهما ضغطا خفيفا ٠٠ ونظر الى عينيها فلم يجد بهما تلك اللهفة المعهودة ٠٠ ولم يحس فيهما ذلك الشوق الذى كان ينتظر ٠٠ وأحس بالخيبة تملأ نفسه ٠٠ أهذه هى القبلة التى كان يحلم بها طوال تلك المدة !

وترك وجهها فى سكون . وعاد فجلس على مقعــد قبالتها ٠٠ وساد الصمت برهة ٠٠ وتحدثت المرأة لتقطع ذلك الصمتفسألته فى غير إكتراث :

ــ أكان مرضها طويلا ؟

ـ عشرة أيام ٠

ثم أردف فى صوت يشوبه اليأس :

ـ كنت أظن أن عودتى ستسعدك ٠٠ وأنك ستلقيننى بأحر شوق وأشد لهفة ٠

ونظرت المرأة الى الظلال التى تتراقص على أرض الحجرة وقالت فى صوت هامس كأنما تحدث نفسها :

ـ انى لا اطمع فى اكثر مما حصلت عليه ٠٠ انى قانعة راضية ٠٠ فعندما تعطينا الحياة زهورها يجب أن نكتفى منهـا بعبيرها والنظر اليها ، ونتركها تبتعد دون أن نحاول قطفها ٠٠ فيبقى عطرها وسحرها فى رؤوسنا مدى الحياة لأن قطفها ان لم يدم أيدينا فسيرينا هذه الزهور ذابلة بعد برهة قصيرة ، ويرينا أوراقها تتساقط فى الثرى وتختلط باديم الأرض ، ولا نعود نبصر فيما بعد ذلك سحرا ولا روعة ٠٠ أجل ٠٠ عندما نبصر اجمل ما فى الحياة فان خير ما نفعله هو أن نقنع بالذكرى ٠

ورفع الرجل وجهه وهز رأسه متسائلا :

ـ أوتظنين حقا اننا قد ابصرنا اجمل ما فى الحياة ؟

وصمتت المرأة برهة ، وسبحت ببصرها من خلال النافذة وأجابته كالحالمة :

ـ اجمل ما فى الحياة ؟ ! وأى شىء هناك أجمل من لقائنا أول مرة ؟

وأحس الرجل بنشوة ٠٠ لقـد بدأ هو الآخر يندفع الى حيـاة الظلال !! ووجد نفسه يقول وقد أثملته الذكرى :

ـ انى لأذكر ذلك اللقاء كأنما حدث بالأمس فقط ٠٠ وأنى لأكاد أبصر وجهك كما ابصره الآن ٠٠ ما تغير فيه شىء ولا تبدل ٠٠ فأنت أنت فتاة الأمس ٠٠ امرأة اليوم ٠٠ حتى هذه الظلال التى بدا وجهك من خلالها ٠٠ هى هى ٠٠ يا لك من امرأة عجيبة ! لقد كانت الظلال

تستهويك دائما • لقد كانت تفتنك وتفتن الناس • كم كنت رائعة عندما وقع بصرى عليك أول مرة ، وقد بدا وجهك مضيئا مشرقا ، من بين أوراق الذرة العريضة الخضراء ، التى ألقت ظلالها الداكنة حول وجهك فزادت فى اشراقه حتى لكأنه بدر قد أطل من خلال السحب القاتمة . فأشرق فى دياجير « ليل قاتم الأعماق طام » • وأبصرت فى عينيك تلك النظرات الحالمة المستسلمة ، ورأيت شفتيك الممتلئتين فى اغراء وفتنة ، المضمومتين فى لين ونضارة •

وعرتنى اذ ذاك هزة ، وانتفضت « كما انتفض العصفور بلله القطر » • وقلت لنفسى : انها هى •• لقد وجدتها أخيرا ، حبيبة العمر التى أعيانى البحث عنها وأضنانى الشوق اليها •• واندفعت اليك فى حمق طائش •• وأمطرتك وابلا من الأسئلة : من تكونين • ومن أين ، والى أين •• وعلمت أنك قد أتيت لزيارة عمك فى ضيعته •• وعدت معك الى القاهرة فى اليوم التالى رغم انى لم أنجز شيئا مما أتيت من أجله •• ومنذ ذلك اليوم وحياتى قد مسها سحر بدل كل ما فيها وقلبها رأسا على عقب •

لقد شعرت وقتذاك أنى لن أستطيع الحياة بدونك •• لقد وجدت فيك قطرات الماء التى يصادفها ضال قد شفه الظمأ فى صحراء جرداء وأنهكه العدو وراء سراب خداع خلاب . ومع ذلك فلم أكد أمد يدى الى تلك القطرات لأروى منها غلتى حتى وجدتنى مقيدا مكمما • أجل لقد كان ثمة حمل يثقل كاهلى وينقض ظهرى •

كنت متزوجا •• وعلم الله أنها ما أسعدتنى مرة واحدة •• ولكنه كان زواج مال •• وما كنت راغبا فى مال ولا ثروة ، ولكنى كنت صغيرا وقتذاك •• وكان أبى يراها فرصة العمر • وانتهت المسألة فى لمح البصر ، ولم أحس حينذاك أنها ستكون قيدا ثقيلا ، ولم أحاول أن أنظر الى الأمر نظرة جادة •

ومرت بى الأيام ثقيلة مملة ، وبدأت أبحث خارج الدار عن مرفهات ومسليات ، من تلك الأنواع الخفية التى يمكن للانسان مباشرتها دون أن تصاب حياته الزوجية بصدع ، أو تحطيم ، حتى صادفتك ، واذا بى امام ملاك نسيج وحده ·· اجل لقد كنت شيئا آخر جديدا لم أصادف مثله من قبل ·

وفى ذات يوم عزمت على أن أكون حاسما فى أمرى ·· فجابهتها بالواقع ·· وكنت صريحا معها كل الصراحة ·· وسألتها الانفصال ·· فقد كان ذلك خيرا لى ولها ·· ولكنى رأيت فى عينيها نظرة حزينة ·· وأجابتنى فى سكون أنها حامل ·· وأحسست أن اجابتها سكين مزق قلبى ·· وتركتها دون أن أحير جوابا ·· ولم أحاول أن أطلب منها الانفصال بعد ذلك ، ولكنى أحس الآن أننى كنت أحمق وقتذاك ·· ولو تكرر الأمر الآن لأصررت على الانفصال ·· ولتركتها تذهب هى وطفلها الى حيث المقت ·· أجل انى أشعر أنى لم أعد بعد ذلك المثل الذى حاولت أن أكون ·· ان تلك الصخور التى نصطدم بها فى طريق الحياة تجعلنا أكثر صلابة وخشونة ·

وصمت الرجل وساد سكون عميق قطعته المرأة بقولها :

ــ وكيف حال ابنك ؟

ــ ابنى ؟ انه لم يكن ابنى فى يوم ما · لقد كان ابنها منذ أن خرج الى هذه الحياة · لقد علمته كيف يكرهنى · ولذلك لم أكن أهتم به كثيرا لأنك كنت تملئين جوانحى وتشغلين كل قلبى ورأسى ··

ــ ولم لم تحاول الانفصال وقتئذ ؟

ــ لقد حاولت ذلك مرة أخرى ، ولكنى علمت حينذاك أنك تزوجت ، فتملكنى اليأس · ولم أجد معنى لذلك الانفصال وخاصة أنها كانت تقوم بواجبها نحو بيتها كما يجب ، وأنها بدأت ايضا تكف عن تلك المشاحنات التى كانت تثيرها من أجلك · على أى حال لقد انتهى

كل ذلك الآن ·· وأصبح كلانا حرا طليقا · فهلا يمكننا أن نسعد بتلك البقية الباقية من حياتنا ؟

ولم تجب المرأة بل نظرت الى تلك الظلال المتراقصة على أرض الحجرة ·· ثم تمتمت :

ـ من ناحيتى أنا ·· لقد تعودت العيش فى الظلال ·· ولا أظننى أستحق أكثر من ذلك ·· فقد سرقت رجلا من امرأته ·· أو على الأصح سرقت حبه ·

ـ لا تكونى حمقاء ·· انها لم تستطع لحظة واحدة أن تملكه ·· أنه لم يكن لها فى يوم من الأيام ·· ولو لم تسرقيه أنت لسرقه غيرك ·· لقد كان زواجنا زلة الأيام ·

ـ دائما نلوم الأيام ونتهم الحياة ونحن أحق باللوم والاتهام « نعيب زماننا والعيب فينا » ·· أجل ان العيب فينا والخطأ خطؤنا ·· أتذكر ذلك اليوم الذى تزوجت أنا فيه ·· لو كان لدى الخلق المتين والشجاعة الكافية التى تمكننى من المضى فى طريقى حتى النهاية ·· لما أقدمت على ذلك الزواج قط · انى لم أكن أحبه ، واذا لم تحب المرأة فخير لها الا تتزوج ·· وليتنى كنت لا أحبه فقط بل كنت أحب سواه · لقد كان خير أنواع الرجال ، وكنت أحترمه وأقدره ·· بل انى شعرت بفجيعة لفقده ، وأحسست بالفزع والوحدة تشملنى بعد موته · ولكنى مع ذلك لم أكن أحبه · وكنا نبدو سعيدين فى الظاهر ولكنه لم يكن سعيدا قط فى باطنه ، اذ لم أستطع أن أعطيه الشىء الذى يطلبه ، وكان كلانا يعلم ذلك ، ولكننا لم نتحدث عنه قط · لقد كان خير ما يصلح له فى نظرى هو أن يكون وسيلة للنسيان ·· ولذا كنت أحس أننى جبان وأنى أحاول أن أشرك معى فى حمل أعبائى مخلوقا لا ذنب له ·· كان يجب على أن أحمل حبى فى قلبى وأسير فى طريقى بشجاعة لا تخيفنى معها الوحدة

ولا يزعجني أن يدمي الحصا قدمي ·· حتى أصل الى نهاية الطريق · ولكني لم افعل ولم تفعل أنت ايضا ·· فقد كان عليك على الأقل ما دمت لم تستطع أن تكون زوجا لزوجتك ·· أن تكون أبا لابنك · ولكننا أغمضنا أعيننا عن أخطائنا ·· ورمينا الزمن بالخطأ الذي فينا ·

ثم يخيل اليك بعد ذلك أننا نستطيع الآن أن يمسك أحدنا بيد الآخر . ونعاود السير في الطريق سويا ·· لنحصل على بقية نصيبنا من السعادة ·· لا ·· لا ·· لا أظن المسألة من السهولة كما تتخيل ، يجب أن تعود الى ابنك ·· فحرام أن تتركه بلا أم ولا أب ·· يجب أن تعوضه كل ما حرمته من حنانك فيما مضى من الزمن ··· يجب أن تكون له وحده ·

وطأطأ الرجل برأسه وأحس لأول مرة بالحنين الى ابنه وقال لها هامسا :

ـ وأنت ؟

ـ لقد قلت لك انني تعودت العيش في الظلال ·

ـ أيتها الحالمة ·· ألا تظنين أن ضوء الشمس قد يكون خيرا من الظلال ؟

ـ اننا لم نفعل ما نستحق من أجله أن نعيش في الضوء ، واني لا أكاد أبصر هذه الظلال حتى أحس فيها عزاء وسلوة ·

واقترب منها الرجل ولف ذراعه حولها ، ثم رفع رأسها اليه ، فأبصر في عينيها لأول مرة تلك اللهفة وذلك الشوق ·· واقترب بشفتيه من شفتيها فأحس فيهما حرارة تتأجج ولهيبا يستعر · وسألها هامسا : « أتصرين على أن أتركك ؟ » ·

فهمست مؤكدة : « أجل » ·

ـ على أن أعود اليك بين آونة وأخرى ·· ؟

ـ أجل ! ٠

ـ فى ظلمة الليل حيث لا ظلال تتعلقين باهدابها ، وفى أيام الشتاء حيث الأوراق متساقطة والشمس غائبة ؟

وهمست المرأة الأخيرة : « أجل ٠٠ أجل » ٠

وغادر الرجل الحجرة وسمعت وقع قدميه يبتعد فى الطريق ٠٠ ثم ساد الصمت وعم السكون ٠٠ وهبت نسـمة خفيفة من أنفـاس الصيف الهادئة ٠٠ فحركت أوراق البانسيانس ٠٠ فبدأت الظلال تهتز وتتراقص ، وتغدو وتروح ٠

وبدا وجه المرأة من خلال الظلال ، وقد كست عينيها سحابة من دموع ٠

يا للمرأة العجيبة ٠٠ أتراها حقا لم ترد ان تنتزع الأب من ابنه ٠٠ كما نزعت الزوج من زوجته ؟ أم تراها حقا قد أحست أن الابن اولى بالرجل منها ، وانه يجب أن يكون له وحده ؟

أم تراها من هواة الظلال ٠٠ وعشاق الذكريات !

امـــرأة غيــرى

هذه قصة روتها لى امرأة منذ عشرات السنين ·· امرأة غيرى ·· اكلت الغيرة قلبها فعاشت فى نضال دائم وخوف مستمر ·

★ ★ ★

حدثتنى المرأة قالت :

ـ دعنى أجول بك خلال الماضى البعيد والأيام النائية ·· فأريك كيف كنت واياها طفلتين عابثتين لاهيتين . لا نكاد نفترق الا ساعة تأوى كل منا الى فراشها ·

كنا ابنتى عم ، وكانت دورنا متجاورة ·· وشببنا فى الحياة كأختين ·· وكان لنا ابن عم آخر يقاربنا فى السن ، وكنا نتقابل جميعا فى الصيف حيث نتخذ من رمال الشاطىء مرتعا للهو . ومن ظهر الموج مطية للعب والمرح ·

وانت تعلم يا سيدى ، أن العائلات التى بينها مثل هذا التقارب والتحاب تحاول دائما أن تربط بين أبنائها بالزواج وهم ما زالوا فى دور الطفولة ، ولو كان ذلك من باب المزاح · وهكذا نشأنا ونحن نسمع من آبائنا وأمهاتنا أن ابن عمى سيتزوج من ابنة عمى ·

وكنت طفلة لا اكاد اقيم للمسالة وزنا . وكنت لا احس أن ابن عمى يرى لاحدانا فضلا على الاخرى ٠٠ كنا فى نظره سواء ما دمنا نشاركه لهوه ولعبه . وعلى ذلك فلم يكن يهمنى قط أن يقولوا عنه انه زوجها أو زوجى ٠ ومرت السنون . واستمر الأمر كذلك حتى كنا ذات صيف ٠٠ صيف يحمل فى طياته تبدلا لكل ما بأنفسنا ٠٠ صيف نقلنا من عالم الى عالم . ومن حياة الى حياة ٠٠ صيف حمل لنا فى حرارته الأنوثة . وحمل له الفتوة والشباب فالتقى ثلاثتنا ، لا طفلتان وصبى ٠٠ بل فتاتان وشاب ٠

ولست أدرك ما حل بنفسى وقتذاك . فقد اعترانى ما يعترى كل فتاة عندما تتحول من طفلة الى امرأة ٠٠ من تطور فى الجسد والعقل والقلب والتفكير ٠ ولست أريد أن أسهب فى شرح ذلك التطور ، ولكنى فقط أريد أن أشرح من ناحية معينة ، وهى ما حدث من تبدل فى نظرتى الى ابن عمى وفى احساسى نحوه ٠

ولست أشك أن كل ما حدث بى من تطور قد تركز فى تلك الناحية وأنه قد اتخذها مظهرا واضحا جليا ٠

هذا الصبى اللاهى العابث الذى كنت أعدو خلفه لأقذفه بالحصى وأغمره بالمياه ، والذى كان يمسكنى بين ذراعيه أو يجذبنى من شعرى فيلقى بى على الأرض . ويجلس فوقى بيديه وركبتيه ٠٠ دون أن تتحرك فى جارحة ٠٠ هذا الصبى الذى لم اك أرى فيه الا زميل لعب ٠٠ والذى لم اك أعبأ قط أن يقال عنه أنه زوج ابنة عمى أو زوج أية كائنة من كانت ، أتدرى كيف أصبحت أراه ؟

عجبا لنا ٠٠ كيف تتبدل فى أعيننا المرئيات بين آونة وأخرى ، ونراها فكأننا نبصر أشياء أخرى غير التى تعودنا أن نبصرها ٠ نراها فتبهت من سناها ونؤخذ من اشراقها وكأننا ما رأيناها من

قبل ، وما تبدلت هى ، ولكن تبدلت نفوسنا .. وما أشرقت هى ولكن سرى من نفوسنا اليها ضياء غمرها .

ما ذاك الجفاء الذى أصبحت أحسه نحو ابنة عمى والكره الذى يجيش فى صدرى لها ؟

أكان ذلك لأنهم يقولون عنها انها ستضحى زوجته ؟

هذا القول الذى سمعته من قبل مئات المرات . فما حرك فى قلبى ساكنا ، وما أثار من نفسى اهتماما .

هذا القول قد أضحى الآن يعتصر قلبى اعتصارا .

لقد كنت اذا ما ضم ثلاثتنا مجلس ـ انا وهى وهو ـ لا أكاد أرفع عنه عنه بصرى ، وكان هو لا يكاد يرفع عنها بصره .

كنت أنصت اليه .. وكان هو ينصت اليها .

لقد كنت لا أحس الا وجوده ، وكان هو لا يحس الا وجودها

أما عن احساسها نحوه فاننى لم أستطع أن اجزم به .

ولم أكن أستطيع أن اتبين من تصرفاتها وتعابير وجهها ، مدى ما تكنه من حب .. فقد كانت تتحدث معه كما تتحدث مع سواه .. فهى دائما لطيفة المعشر حلوة الحديث ، ولكنها على أية حال لم تكن قطعا مدلهة فى هواه ، كما كان مدلها فى هواها ، أو كما كنت مدلهة فى هواه .

وأذكر أنها قالت لى ذات ليلة « انى أستلطفه ، ولكن هل يكفى الاستلطاف أن يكون باعثا على الزواج ، أم لا بد من الحب ؟ » ..

ولم أجبها ، وان كانت كل جارحة فى تكاد تصيح « بل لا بد من الحب .. الحب الذى يضطرم فى صدرى ويتأجج بين جوانحى » .

ومرت الأيام وأنا أكافح حبى .. احاول أن أخمده فلا يخمد . حتى وقعت الواقعة ، وتمت الخطبة ، وتحدد الزواج بعد بضعة أشهر .

أى يأس عصف بنفسى وقتذاك ؟ لقد كنت وما زلت آمل ، رغم أنه لم يكن هناك وجه للأمل ، وكنت أعلل نفسى . وأقول لها من يدرى ؟ قد ترفض هى ، فانها ليست واثقة من انها تحبه ، ولكن عندما تمت الخطبة . ذرت الريح هشيم أملى . وأحسست بيأس مميت .

آه لو أستطيع الفرار ! ان كل ما حولى موحش كئيب ، ولكن ممن افر ؟ ونفسى هى العلة ، وقلبى هو الداء .. كم يتمنى الانسان فى تلك الأوقات أن يفر من نفسه !

ولكنى كنت أعلم أنه لا سبيل الى الفرار ، فهزيمة القلب لا علاج لها !لا الصبر والاحتمال .. ويجب أن ننتظر حتى يبرىء الزمن داءنا .

أجل ، يا سيدى . ما كان أمامى الا التذرع بالصبر ومحاولة النسيان .

ومرت أيام الخطبة وهو يبدو سعيدا هانئا كأسعد ما يكون انسان تحققت احلامه .. وبلغ امانيه .

أما هى .. فما كانت قط كذلك ، لقد كان بها شىء من الشرود .. وكأن هناك ما يشغل ذهنها ، أو كأنها حائرة تائهة لا تستقر نفسها على قرار .

وفى ذات يوم ذهبت لزيارتها ودلفت الى حجرتها فوجدتها تبكى . وفوجئت بوجودى ، وكفكفت دمعها وأنبأتنى أنها متعبة الأعصاب ، ولا شىء أكثر من ذلك .. ولكننى كنت أعلم سبب بكائها .. أنا وحدى التى أستطيع أن أعلم .. أنها لا تحبه .

وأنا يا سيدى .. أنا التى كنت أتمنى لو أدمى قدمى شوك القتاد . وأحرق جسدى جمر الغضى .. حتى أصل اليه لأفتديه بعمرى ، كنت لا أجسر أن أقول انى أحبه ...

يا للتناقض العجيب ! لقد كانت تذرف دمع عينيها لأنها ستتزوجه

بينما كنت أبكى بدم قلبى لأنى محرومة منه · فلا هى تجسر أن تقول انها لا تحبه ، ولا أنا أجرؤ أن أقول انى أحبه ·

ومضى أسبوع وكنت أجلس ذات صباح فى حديقة الدار عندما لمحته يقبل على وقد بدت على أساريره مسحة هم وأسى وكان فى مشيته بطء وتثاقل كأنه ينوء بعبء أثقل ظهره · وجلس قبالتى وأحسست بضربات قلبى تشتد وبأنفاسى تتلاحق ·

وسادت فترة صمت كان هو يحدق خلالها أمامه فى ذهول وشرود ، دون أن ينظر الى ، وأخيرا قال :

— انى أريد منك معروفا لن أنساه مدى الحياة ·

ولم أتكلم · فقد كانت كل جارحة فى تكاد تنطق « ليت لى فوق الضنى ما أوجعك » ·

وأنبأنى بصوت خفيض بائس أن الخطبة قد فسخت لأنها تقول انها قد تسرعت فى الأمر · وسألنى باعتبارى صديقة لها أن أحاول التأثير عليها وردها الى وعيها فلا شك أن كل ما بها ليس الا نوبة طيش ·

وحاولت أن أخفف لوعته فقلت له انى سأفعل جهدى

رحماك ربى ·· ! أنا التى أبذل جهدى حتى أردها اليه ! أنا التى ما تمنيت شيئا قدر أن أبعدها عنه ! ولكن ما الفائدة فى أن تبعد هى وهو ما زال متعلقا بها ، وما الفائدة فى أن أؤمل فى حبه وهو لا يرى منى الا واسطة أقربها اليه ·

وعلى ذلك فقد حاولت جهدى أن أقربه اليها وأن أعيد المياه الى مجاريها · أو هذا على الأقل ما صممت عليه · ولكنها لم تتح لى الفرصة فلقد سافرت فى اليوم التالى مع أبيها وتركته فى يأسه وفى لوعته · ولم يجد هو سواى ملجأ يلجأ اليه ليبثنى أحزانه وليحدثنى عنها وعن حبه لها · فلقد كنت خير صديقة لها وله ·

ومرت الأيام وأنا صابرة محتملة ، حتى أحسست أنه قد أخذ يرتاح الى ٠ وأن قرحته قد أخذت تبرأ ، وجرحه يندمل ، وقل حديثه عنها رويدا رويدا ، وشعرت انه قد أقبل على ، وليس أسهل على المرأة التى تحب من أن تميز أن صاحبها بدأ يعنى بها ، من مجرد أشياء تافهة خفية قد لا يستطيع سواها أن يحس بها كتلك النظرات الدافئة التى تحس بها اذا ما التقت الأبصار فجأة ، أو تلك الرقة فى الصوت اذا ما تحدث معها أو نطق باسمها ٠

ولست أستطيع أن أذكر تفاصيل تلك الفترة التى انتقلت فيها من اليأس المظلم ، الى الأمل البراق ٠٠ والتى أحسست فيها أن المعجزة قد حدثت ٠٠ والتى وجدتنى فيها قد أصبحت محبوبة لمن ينفسى لهفة على الفناء فيه ٠٠ لست أذكر التفاصيل قط ٠٠ فلقد كنت فى نشوة ٠٠ أو فى حــلم ٠٠ كنت أكتم أنفاسى حتى أظل فى غفلة من الزمن ، وكنت أغمض عينى ، حتى لا أصحو من حلمى الجميل ٠ واخيرا سألنى الزواج فوافقت ووافق الأهل ، ولم يطل الأمر حتى كان كل شيء قد أعد ٠

وعادت ابنة عمى من سفرها لتجدنا على وشك الزواج ٠

واقبلت على تهنئنى بحرارة ، ولكنى أحسست منها برعدة ٠٠ وانتابنى منها خوف شديد ٠٠ أجل ٠٠ لشد ما كنت أخشى أن يعاوده داء حبها ، وأن تنتزعه منى مرة ثانية ٠٠ وحاولت جهدى تجنبها والتهرب منها ٠

وتم الزواج ، وضمنى واياه بيت واحد ٠٠ ترفرف عليه السعادة كأنما هو عش فى الفردوس ٠٠ وتمنيت أن أقبع فيه ، لا أزور ولا أزار ، ومرت بى الأيام وأنا سعيدة هانئة ٠

ولم يك هناك بد ــ ونحن أهل واصدقاء ــ من أن نتزاور وأن يرى

بعضنا بعضا اذ لم يكن هناك معنى للقطيعة ، وان كنت انا اتمناها من صميم قلبى حتى انأى بزوجى عنها ٠

وكنت احاول جهدى ان اخفى ما بنفسى عندما نلقاها ٠ ولكن يخيل لى اننى لم استطع ٠ فقد قال لى زوجى ذات مرة عقب انصرافها من زيارتنا : « لقد كنت جافة معها جدا » ٠

ـ انها هى التى كانت جافة ٠

ـ انها دائما رقيقة مهذبة ٠

ـ طبعا ٠٠ « حسن فى كل عين من تود » ٠

ـ ماذا تقصدين ؟

ـ سل نفسك ٠

وانصرفت الى حجرتى وغصفت بى نوبة من البكاء ٠

ومنذ ذلك اليوم وانا لا اكف عن اتهامه بانه ما زال يحن اليها ، وان الأيام لم تنتزع من قلبه حبه الغابر ٠ وكان يحاول دائما ان يقنعنى بخطأ ظنى ٠٠ تارة باللطف واللين ، وتارة بالسخط والغضب ٠٠ ولكن عبثا كان يحاول ٠٠ فقد كان سوس الغيرة ينخر فى قلبى ، وينهش صدرى ، فجعلت من حياته جحيما لا يطاق ٠

واخيرا تزوجت هى ٠٠ واحسست الاطمئنان يعاودنى ٠ وهدأت غيرتى بعض الهدوء ٠ وظننت ان زواجها سيبعدها عن طريقى الى الأبد ، ولكننى كنت مخطئة ٠٠ فقد نشأت بين زوجها وزوجى صداقة متينة ، وكثر بيننا التزاور عن ذى قبل ٠

وعاودنى دائى القديم ٠٠ الغيرة القتالة ٠٠ التى تجعلنى أحلل كل نظرة عابرة وكل كلمة تافهة ، حتى أضحت حياتنا لا تطاق ٠

وحملت هى ٠٠ فزادت نيران الغيرة فى قلبى تأججا ٠ اذ لم أحمل أنا رغم مضى سنتين على زواجى ٠

وفى يوم وضعها ٠٠ كانت تساور نفسى أمنية شريرة ، فلقد بلغت

بى الغيرة حدا بت معه اتمنى موتها ٠٠ أجل ٠٠ لقد كان موتها هو الشيء الوحيد الذى يعيد الى سعادتى المفقودة وينزع من صدرى تلك الغيرة المدمرة التى تجعل من حياتى ظلمة دائمة ٠

لم يكن يخطر ببالى قط أن أمنيتى الشريرة هذه يمكن أن تصبح حقيقة واقعة ، حتى دخل على زوجى فى ذلك اليوم وقد بدا وجهه قاتما متجهما وأنبأنى فى صوت كالأنين انها ماتت بعد أن وضعت طفلة ٠

وكان النبأ مروعا ، وصدمنى صدمة قاسية ، رغم أننى كنت منذ لحظات اعتبره أمنية عزيزة ٠٠ واندفعت أبكى فى مرارة ، وأفقت من بكائى لأجده هو الآخر يبكى ٠٠ ولأجد الشيطان قد عاد يوسوس فى صدرى ويحاول أن يدفع فى نفسى الغيرة من بكائه ٠٠ ولكنى دفعته عنى اذ لم أكن من الجنون بحيث أستسلم للغيرة من امرأة ميتة لم تزل دماؤها ساخنة فى عروقها ٠

وخفت حدة حزنى بعض الشيء ، وتسللت بدله الى نفسى تلك الفرحة الخفية الشريرة الناتجة عن شعورى بأننى تخلصت نهائيا من غريمة طالما اقضت مضجعى وحرمتنى الراحة والهدوء ٠

ومر أسبوع وأسبوعان ، وشهر وشهران ، وسنة وسنتان ٠

ترى هل استعدت هنائى بعد أن ذهبت غريمتى ؟ ترى هل كففت عن اثارة تلك المشاحنات التى طالما نغصت على زوجى حياته ٠٠ بعد أن ذهبت مسبباتها ؟

كلا يا سيدى ٠ كلا ٠ لقد تأصل الداء فى نفسى وأصبح مزمنا ٠

ليتها ما ماتت ٠٠ فلقد كنت وقتذاك أناضل امرأة حية ، أما الآن فلا أناضل سوى أشباح وأرواح ٠

ليتها ما ماتت ٠ فلقد جعل موتها حبه لها حقيقة واقعة ٠٠ بعد ان كان وهما يساور نفسى ٠٠ اجل يا سيدى لقد نكا موتها قرحه

وادمى جرحه ، فلقد فاجاته ذات مرة وقد اكب على صورة لها يبللها بدمعه • ورأيته مرات يزور قبرها لينثر عليه الزهور والدموع •

ليتها ما ماتت يا سيدى فلقد كنت واياها سواء أمام الزمن أما الآن فقد كف الزمن عنها ، فلم يعد له سلطان عليها ، وستبقى صورتها فى ذهن زوجى وفى قلبه فتية لا تشيخ ، ناضرة لا تذبل ، مضيئة لا تخبو ولا تنطفىء •• أما أنا فلقد سخر منى الزمن ، ففى كل يوم له فى شعرى وفى وجهى علامات وآثار •

ان الغيرة تعصف بنفسى ، ولكن ممن ؟ من امرأة ميتة ! ولقد ضاق بى زوجى فأهملنى واضحى لا يحس وجودى ولولا ذلك الولد الذى أنجبه لهجرنى منذ زمن طويل •• ان عزائى فى ولدى يا سيدى » ••

هذه القصة سمعتها من المرأة منذ عشرات السنين . وكدت أنساها لولا أنى لقيتها منذ بضعة أيام ، محطمة مهدمة . تعيش فى دارها وحيدة ليس هناك من يؤنس وحشتها ، وسألت عن زوجها فعلمت أن غريمتها قد سلبتها اياه نهائيا •• فلقد لحق بها الى السماء • وسألت عن ابنها •• عزائها الوحيد •• فعلمت أنه قد تزوج وترك الدار •• أتعلمون من سلبته ؟ انها الابنة التى تركتها غريمتها . فقد سرقت الأم الأب ، وسرقت الابنة الابن •

وبقيت المرأة الغيرى ذابلة ذاوية •• كأنها عود يابس •• أو ورق جف « فاودى به الصبا والدبور » •••

to: www.al-mostafa.com

امـــرأة ضـــالة

حدثتنى المرأة الضالة قالت :

ـ اانا حقا امرأة ضالة ؟ ·· ام امرأة شاذة ؟ لو قسنا ما اكون حسب ما يعنيه الشذوذ ، فانى بلا جدال امرأة شاذة ! فالشذوذ هو أن ينفرد المرء بفعل ما لا يتعوده الناس وان ياتى بما لم يألفوه ·· وانى لكذلك ، فما اتيت أمرا الا أثار فيهم الدهشة وبعث الاستنكار ·

ولكن يخيل الى اننى لو كنت رجلا لما اتهمنى أحـد بالضلال أو الشذوذ فكل ما فعلته واستنكره الناس لا يزيد عمّا يبيحه الرجال لأنفسهم دون أن يتهمهم أحد بما اتهمت به ·

★ ★ ★

اجل يا سيدى ·· ان كل ما ساقصه عليك من أفعالى الشـــاذة لو نسبته الى رجل ، لما كان قط رجـــلا شـــاذا ·· ولكنى قد خلقت امرأة ، وامرأة ظمأى ثائرة ! وحرمت تلك القـــدرة على التخفى والتستر التى توهب للنساء لكى يسترن شرورهن ، ثم دفع بى الى الحياة ·· فلم أستطع أن اكون الا امرأة ضالة !

ما ذنبى يا سيدى وانا لم أخلق نفسى ؟

ما ذنبى وانا احس بظمـــأ دائم الى الحب وتعطش دائم الى الرجال ؟ ‏٠٠ ما ذنبى وانا لا أجد من نفسى رادعا يردعنى عن ارواء ظمئى واشباع نهمى ؟ ‏٠٠ ما ذنبى وأنا لم أحس قط بخجل أو حياء ؟

منذ أن وعيت الحياة ، وأنا كذلك ، مغرقة فى الضلال ممعنة فى الشذوذ ‏٠٠ دعنى اذكر لك كيف كنت صـــبية فى المدرسة ، وكنت ألعب التنس مع زميلاتى ، وكان مدربنا وقتذاك فتى أعرج لا أظن الله قد خلق أقبح منه ولا أشوه ‏٠ ولكنه كان الرجل الوحيد الذى أستطيع الاتصال به ‏٠ هل تدرى ماذا كنت أفعل ؟ لقد كنت أرجو رئيسة الفريق أن تجعل دورى فى اللعب فى النهــاية حتى تنصرف البنات فأخلو الى الفتى ‏٠

وأكثر من ذلك ‏٠٠ تصور أننى كنت ــ وانا فتاة ــ أقفز من سور المدرسة فى العشر الدقائق التى للراحة بين الحصص لألقى صاحبى ولأمتع نفسى بلقائه فى هذه البرهة القصيرة ‏٠

وفى ذات مرة اقامت المدرسة حفلا خيريا كبيرا وكان على أن أقوم فيه بدور قارئة الكف . وكان ذلك سببا فى رفتى من المدرسة ‏٠٠ أتدرى لم ؟ ‏٠٠ اسمع السبب كما روته ادارة المدرسة وقتذاك ‏٠

لقد كان يتحتم على الفتاة التى هى « أنا » أن تجلس فى حجيرة مغلقة ويدخل اليها من يريد قراءة كفه ، ويدفع ما يجود به ، وتأخذ هى فى قراءة كفه لمدة لا تزيد على عشر دقائق ، ثم يدخـل غيره وغيره ! ‏٠٠٠

ودخل فتى وسيم ، ومضت عشر دقائق دون أن يخرج ‏٠ ربع ساعة ‏٠٠ نصف ساعة ‏٠٠ والفتى قابع فى الغرفة ، ودهشت احدى المشرفات على الحفلة ‏٠٠ واقتربت من الباب لتفتحه حتى ترى ماذا يمكن أن يكون قد حدث بالغرفة ، فاذا بالباب مغـلق من الداخل

بالمفتاح .. وطرقت الباب طرقا شديدا ففتح الباب وخرج الفتى .

هذا هو سبب رفتى يا سيدى . لقد أعجبنى الفتى فاستمتعت به .. هذا هو كل ذنبى .. أترانى أستحق الرفت ؟ . اترى فى عملى هذا شذوذا ؟ .. أترى فى فعلتى ضلالا ؟

على أية حال هذه كلها حوادث طفولة تافهة . دعنا منها ، ولنتجاوزها الى ما هو أهم ، الى صميم حياتى كامرأة ناضجة مكتملة .

لا أظننى فى حاجة الى ان أصف لك نفسى ، فأنت أدرى بى .. ولا أظنك مهما حاولت أن تحط من قيمتى من حيث الخلق والطباع الا منصفا اياى من حيث الفتنة والجمال ! قل عنى جرثومة شر ' قل عنى حيوانة ! قل ما تشاء .. فانك لن تستطيع بقولك ان تطفىء بريق الافتتان المنبعث من آلاف الأعين المتطلعة الى . ولن تستطيع أن تخفت همسات الاعجاب التى تلهج بها القلوب قبل الألسن : قل ما تشاء فليس قولك بضائر أنوثتى المتدفقة ولا فتنتى الفياضة ! قل ما تشاء فان قولك سيذهب هباء أمام نضج صدرى واستقامة جسدى وامتلاء ساقى ! قل ما تشاء ، ولكن لا تقل انى غير مغرية ولا جذابة فانى ألمح فى عينيك مبلغ لهفتك على .. ورغبتك فى .

أنا جميلة ومغرورة ، وجمالى يضاعف غرورى ، وغرورى يضاعف فى نظرى جمالى . وهكذا أصبحت أحس أننى استطيع من فرط ثقتى بنفسى أن أفوز فى أية معركة . وأن أصرع أى رجل . وأن أسلب أى حبيب من حبيبته وأى زوج من زوجته .

وبهذا الشعور ، وبتلك الأمنية بدأت أخوض غمار الحياة مسلحة بأقوى أسلحة المرأة : الجمال ، والثقة ، والرغبة الكامنة ، لا فى الحصول على الرجل ، بل فى سلبه من امرأة أخرى حتى أحس بلذة التفوق والانتصار ، يعزز كل هذه الأسلحة شعور بالاستهتار وتحلل

من الخجل أو حتى خشية العواقب ·· بهذا كله بدأت دورى فى الحياة كامرأة ·

والتقيت به ·· زوجى الأول ·· فتى متزوج ·· وافر الثراء · واندفعت فى حبه ·· اذ لم يكن أسهل عندى من الاندفاع فى الحب · ولم يطل به الأمر حتى سقط صريع هواى ، وسرعان ما اقتنصته من زوجته ·

وعارض أهلى الزواج ، فضربت بهم عرض الحائط ·· وقررت مع زوجى · أنكرونى وتبرأوا منى ·· ماذا يضيرنى منهم ما دمت بين أحضان الرجل الذى أريده وأعشقه !

مر شـــهر ·· وشهران ·· وثلاثة ·· وأنا أنعم بلذة الهـــوى والانتصار ·· حياتى مثالية ·· كل ما أطلبــه بين أناملى وتحت قدمى ، لو كان معى خاتم سليمان لما استطعت الحصول منه على أكثر مما حصلت عليه ·

ومع ذلك فقد مرت الايام بعد ذلك تحمل فى طياتها الضجر وتبعث فى نفسى ــ شيئا فشيئا ــ الملل والسأمة ·· لقــد بدأ الحب يتطاير ويتبدل وخيمت على نفسى سحب الكآبة ، وأصبحت حيــاتى راكدة آسنة ، وأنا لم أعتد قط الركود ولا السكون ، انى أريد المغامرة · أريد حبا جديدا وانتصارا جديدا فقد انطفأت جــذوة الحب الأول وخبت بارقة الانتصار السابق ·

ولكننى زوجة ·· وسأصبح كذلك أما ، ويجب أن أكون زوجة صالحة وأما طيبة ·· ويجب أن أقنع بزوجى ، وأكمن فى عقر دارى ، وأن أكبح جماح ذلك الشيطان الذى يحاول أن ينطلق من نفسى ·

لا ·· لا ·· أنا لم أخلق قط لذلك ·· هذا الجمال ، وتلك الفتنة ليس مكانهما الدار · هذه النفس الثائرة الفائرة لا يمكن أن يكبح لها جماح ، أو يستقر لها قرار ·· هذه النفس لا تقيم وزنا لنواميس

الحياة ، أو قوانين الزواج ·· وهذه النفس التى لا تمل ولا تستحى ولا تخشى أية عاقبة ·· لا بد لها أن تنطلق لتنهب من اللذات جهدها ·

وهكذا محوت من نفسى أى شعور بقيود الزوجية ·· واندفعت كعادتى باحثة عن عشاق ومعجبين ·· ألهو بهم ويلهون بى ·

ولقد كانوا كثيرين ، متزوجين وغير متزوجين ، أنتقل من واحد الى آخر ، كالنحلة تنطلق من زهرة الى زهرة ، حتى صادفنى أحدهم واستطاع أن يجذبنى أكثر من أى رجل آخر ·

وتوثقت عرى الصداقة بينه وبين زوجى ·· كما توثقت عرى المحبة بينه وبينى · وفى ذات يوم سافر زوجى الى ضيعته فخلا لنا الجو ·

وأتى الى الفتى صبيحة سفره ثم صحبنى الى داره وهناك أخذنا نلهو حتى حان وقت الغداء فتناولناه ·· وأحسست بعد الغداء باسترخاء وخمول ·· وحركت حرارة الجو وقبلات الفتى ·· الشيطان الكامن فى نفسى ·

وضمنا الفراش ·· وبدأت أنعم بلذة الاثم ·· لذة جارفة قوية ·· ودهش الفتى من سرعة استسلامى ·· فالنساء فى هذه الحالات رغم رغبتهن فى الاستسلام – يظهرن التمنع والتدلل ·· ولكنى لم أكن كذلك ! لقد كنت فى جرأة رغباتى أشبه بالرجل ·

وانسقت مع صاحبنا فى دنيا من الهوى والمجون لم تدم أكثر من ثلاثة أشهر حتى بدأت أمله ، أمله كما مللت سواه ، ولكنه لم يملنى ، بل كانت رغبته فى ازدياد ·· وحاولت صده وافهامه أننى لا أستطيع أن أحب رجلا أكثر من ثلاثة أشهر فلم يقتنع ·

ومرت الأيام والفتى يزداد بى جنونا وأنا أزداد منه نفورا ·· حتى أنبأ زوجى ذات يوم بكل ما بيننا وطلب منه أن يطلقنى حتى يتزوجنى هو ·· وثار زوجى ثورة ·· سرعان ما عرفت كيف

أخمدها . واسترضيته فرضى ، واستغفرته فغفر ، وبمرور الزمن يئس الفتى من حبى فنسينى كما نسيته .

وأسدل الستار على هذا الحب .. ولكن لم تكن لى طاقة على ذلك ، بل اندفعت فى حب جديد .. حب يا سيدى لم يكن كسابقه ، ولم يكن لهوا ولا عبثا .. بل كان حبا حقيقيا ، ملك على مشاعرى .. وعصف بنفسى عصفا شديدا .

أجل يا سيدى ! لقد عرفت الحب لأول مرة .. الحب الذى يجعلنا نتعلق بشخص معين لا نكاد نبصر سواه .

ولست أدرى أكانت هى الرغبة الشريرة التى تدفعنى الى أن أسلب الزوجات أزواجهن . هى نفسها التى دفعتنى الى ذلك الحب .. أم كان ذلك مجرد قضاء وقدر .. فلقد كان الرجل الذى عشقته زوجا وكانت زوجته صديقة حميمة لى .

وطبعا لم أتورع فى حبى .. فأنا ــ كما قلت لك ــ امرأة لا تخجل ولا تحس حتى ولو لم يدفعها سوى الرغبة فى اللهو .. فما بالك وقد أضحى يدفعها حب جارف وهوى عنيف !

لقد أحببت زوج صاحبتى ، واندفعت فى حبه دون مواربة ولا استتار .. حتى ما بقى هناك مخلوق لا يعرف أننا عاشقان .

وبدأت أصاب بحالة أشبه بالجنون .. حالة دفعتنى الى أن أثور على زوجى وأن أبكى أمامه طالبة منه أن يطلقنى ، معترفة له بأنى أحب صاحبى وصاحبه أيضا .. ثم اندفعت محاولة الانتحار فتناولت زجاجة من الأقراص المنومة .

وأخيرا ، يا سيدى ، طلقنى زوجى بعد أن مرت بى أيام عصيبة كادت تودى بى الى الموت وتفضى بى الى الجنون .

وطلق صاحبى زوجته ، وتحرر كلانا من كل قيد وأضحت الحياة أمامنا باسمة مزدهرة .. وتزوجنا بعد بضعة أشهر .. وشهدت

الاسكندرية وشاطىء سيدى بشر منا أروع مناظر الغرام ، وأبدع لوحات الحب ، ورأى منا « الرومانس » ما لم يره من عاشقين قبلنا ٠٠ حتى بتنا مضرب الأمثال ٠٠

أنا الآن يا سيدى زوجة لذلك الذى همت به ٠٠ وجننت من أجله٠٠ الرجل الذى نزعته من زوجته ونزعنى من زوجى ، لقد اضحى ملك يدى ٠٠ لا شريك لى فيه ٠٠ أنا يا سيدى امرأة سعيدة ٠٠ أحس بأن حياتى قد استقرت ، وأننى لم أعد أطمع فى شىء ٠٠ ولا أشكو من شىء ٠٠ فقط ٠٠ شىء واحـد أريد أن أهمس به ٠٠ ان زوجى يضيق على الخناق ٠٠ انه يخشى أن يلدغ من الجحر الذى لدغ منه سابقه ٠٠ انه يريد ألا يفلت زمامى من يده ، فهو لا يفارقنى لحظة واحدة ٠٠ فاذا كشفت ساقاى أشار على بأن أسترهما ، واذا طلبت منه أن أزور ابنى أمرنى بأن يأتى هو الى ، وأنا يا سيدى لم أتعود تلك القيود ٠٠ انى لا أستطيع أن أتنفس فى جو قد خلا من المعجبين والعشاق وكم أخشى أن أختنق او انفجر مرة واحدة ، فأثور على الرجل الذى أحببته ٠٠ والفظه كما لفظت الذين من قبله ٠

آه يا سيدى ٠٠ كم أخشى من نفسى الضالة المكبوتة المكبوحة ٠ الى متى أستطيع امتلاك زمام نفسى ؟

★ ★ ★

عزيزتى ٠٠٠ المرأة الضالة ٠

الى هنا تنتهى اعترافاتك ٠٠ فأنت تدرين أن تلك هى نهاية قصتك حتى وقتنا هذا ٠٠ ولكن القراء ناقدون فهم لن يرضوا بهذه النهاية ٠٠ ولن يقبلوا منى تلك الخاتمة ، فأنا أدرى بهم ، هل تسمحين ان أشارك القدر فأتمم قصتك ؟ وأختم اعترافاتك ؟

أيها القراء ٠٠ اليكم البقية منى عن لسان المرأة الضالة ٠

★ ★ ★

لقد أفلت الزمام يا سيدى ٠٠ لقد أصابنى الضيق وتطرق الى الملل ٠٠ أريد الانطلاق من ذلك الأسر ٠٠ أريد الفرار من ذلك السجن ٠٠ لقد تبخر الحب من نفسى وتطاير كالهشيم تذروه الرياح ٠٠ انى لا أصلح قط أن أكون زوجة ٠

بدأت أعود الى سابق عهـــدى ٠٠ الى الانطلاق والحرية ، والعشاق والمعجبين ، ولقد مل زوجى فانطلق هو الآخر الى ملاذه ومتعاته ٠

مرت الأيام والأشهر والسنون ، أنهك السهر جسدى ، وحطمت الملاذ قواى ٠٠ وبدأت أحس بالذبول والنحول ، وتسلل الشيب الى شعرى ٠٠ وتسربت التجاعيد الى بشرتى النضرة الصافية ٠

هجرنى زوجى ، وتفرق من حولى المعجبون والعشاق ٠٠ اننى أحس بالفراغ والوحدة والوحشة ٠٠ أما من عشـــاق ! أما من معجبين ! كم أحس بالحنين اليهم واللهفة عليهم ٠

وفى ذات يوم أنبأتنى صاحبة لى أنها على موعد مع بعض العشاق من الشبان فذهبت معها وقفـزت الى العـربة الأنيقة التى وقفت تنتظرنا ٠٠ نظرت الى الفتية الثلاثة الذين جلسوا فى العربة فاذا بأحدهم ، من تظنه يكون ؟ من هو ؟

لقد كان ابنى ! ٠٠

آه يا سيدى ! اية طعنة سـددها القـدر فأدمت قلبى ومزقت حشاى ؟ ٠ لقد انطلق ابنى يسوق العربة ٠٠ وأحسست من اضطرابه أنه قد عرفنى ٠٠٠ ولم اتكلم ٠٠٠ ولم يتكلم ٠٠٠ ولكن كانت كل جارحة فينا تكاد تنطق !

كم كنت أود لو انشقت الأرض فابتلعتنى فى جوفها ٠٠ لأتخلص من هذا المأزق ٠٠ واستجاب الله دعائى ، فقد رأيت عجلة القيادة

تضطرب فى يده · ثم احسست بالعربة تندفع فى جنون ·· ولم احس بعد ذلك شيئا ·

وافقت فاذا بى فى احد المستشفيات ·· وشعرت بانى فى النزع الأخير ، وأن لحظاتى فى الحياة معدودات ، وسألت عن ولدى فقيل انه مات ·· متى ينعم الله على بالموت انا الأخرى ؟

★ ★ ★

ولقد كان الله كريما فانعم عليها بما طلبت ·

أيتها المرأة الضالة ···

لا تحزنى على نفسك يا سـيدتى · ولا تحنقى لهـذه الخاتمة القاسية · فما ابتغيت بها الا ارضـاء القراء ، واعـذرينى فان ارضاءهم يحتاج الى شىء من التهويل والتهويش ·· ولو أننى اشك كثيرا فى أن القدر سيهديك خاتمة خيرا منها ·· والأيام بيننا ···

امــرأة ثكلى

جلست اليها منصتا مصغيا ، وساد المكان سكون اصبحنا من فرطه نكاد نسمع أنفاسنا تتردد ·· ورنوت اليها فلمحت فى عينيها بريقا وفى وجهها اشراقا ·· بريق ايمان واشراق طمأنينة ·· وشدت من الهواء نفسا طويلا اخرجته بعـد برهة فى زفرة هادئة ·· ثم أراحت ظهـرها على مسند المقعـد وشخصت ببصرها فى الفراغ البعيـد ·· وبدأت تقص على قصـتها ، كأنما تستوحيها من ذلك الفراغ ·

★ ★ ★

يقولون ان « الأذن تعشق قبل العين احيانا » ·· وأزيد على قولهم أن الذهن قد يعشق قبل الأذن وقبل العين ، ولقد كان ذلك هو طريق عشقى له وحبى اياه ·

كنت اقرأ له كل ما يكتب ·· ويخيـل الى ان كلمة « أقرأ » ·· لا تعبر تماما عما أعنيه ·· فهى بالنسبة لما أعنيـه كلمة سطحية عامة ·· ليس بها ذلك العمق أو الحرارة التى أريد أن أعبر عنها ·· اذ لا شك انه شتان بين ان يقرأ المرء جرائد الصباح ·· بما فيهـا

أسعار البورصة ، وتنقلات الوزراء ، وبين ما كنت افعله عند ما كان يقع بصري على احدى قصصه أو قصائده ٠

هل تدرى الفارق بين قزقزة اللب ، وبين اقبال نهم محروم على مائدة رصت عليها اشهى أنواع الطعام ؟ ٠ هل تدرك الفارق بين جلوسك الى شخص يقدم لك النصائح والمواعظ ، وبين جلوسك الى حبيب يذيبك لقاؤه ؟ لقد كان هو الفارق بين ما تعنيه القراءة العادية بالنسبة الى ٠٠ وبين ما تعنيه قراءتى لكل ما يكتب ٠٠ كل ما يكتب بلا استثناء !

كنت أتتبع كتابته فى الصحف والمجلات ، وعندما كنت أعثر على شيء من كتبه ٠٠ لم اكن اقرأه لأول وهلة ، بل كنت أحتفظ به فترة من الوقت ، فقد كنت احس فى الاحتفاظ به لذة البخيل تصل الى يده الدراهم فيأبى صرفها ، رغم ان صرفها قد يعود عليه بلذة كبرى ٠٠ أو لذة المحروم يحصل على نوع من الفاكهة الثمينة ، فيتمتع بابقائها معه برهة قبل ان يأكلها ٠

ولم أكن أقرؤها بعد ذلك الا حينما أخلو الى نفسى ، وأستريح فى جلستى أو فى رقدتى ثم أبدأ بتذوقها ٠٠ أو احتسائها رشفة رشفة ٠٠ وقطرة قطرة ٠٠ شاعرة أنها قد حملتنى الى عالم آخر ٠٠ عالم نسجه هو ورفعنى اليه ٠

كنت أحس فى تلك اللحظات انى أحيا معه ، بين السطور وبين الكلمات ٠٠ دون ان يحس هو بى ٠٠ وكنت أشعر أننى ألقاه وان كان هو لا يلقانى ٠

وهكذا يا سيدى عشقه ذهنى قبل أن تحس به اية جارحة فى نفسى ٠٠ ولا شك أن عشقى له وقتذاك كان نوعا عجيبا من العشق ٠٠ نوعا يقوم كله على التصور والوهم ٠٠ وعلى القناعة والزهد ٠٠ فقد كنت لا أعرف من يكون ، ولم تكن لدى اية فكرة عن شكله أو

عمره ·· أكان شابا أم كهــلا ·· أعزب أم متزوجا ·· قبيحا أم وسيما ·· كل هذا لم أك أدرى عنه شيئا ، فما رأيت له صورة قط ، ومع ذلك فقد كنت أرسم له فى ذهنى صورة ·· هى خليط من أبطال قصصه ·· صورة رجل مجرب عركته التجارب وحنكته الأيام ·· قد لاقى فى حياته ما صقله وجعله يشع بذلك الاشعاع من النبوغ ، فان كتابته لا شك ترديد لما صادفته نفسه ·

وهكذا يبدو لك مدى ما كان فى حبى من تصور ووهم · أما ما كان فيه من قناعة وزهد فقد كان مبعثه أننى أعشق شخصا لا يحس بى ·· ولا أمل لى فيه ·· فلا أظننى كنت الا واحدة من آلاف قرائه والمعجبين بكتاباته ·· ولا أظن انه كان هناك أى احتمال للقاء بينى وبينه ، وحتى لو صح هذا الاحتمال ·· فما أظننى كنت أتوقع أن أنال شيئا من اهتمامه أو أحظى بقليل من التفاته ·

وفى ذات مرة قرأت له قصة لست أنكر عنوانها بالضبط ولكنى أذكر أنه قد ختمها بسؤاله القراء عن رأيهم فى مصير بطلة القصة ·· وترددت بين أن أكتب له أو لا أكتب ·· فدافع يدفعنى الى الكتابة والى أن أنتهز الفرصة لأعبر له عن اعجابى به واحساسى نحوه ·· ودافع يردعنى لأن كتابى اليه لن يكون سوى واحدا من مئات أو آلاف ·· وقد لا يقرؤه ·· أو قد يقرؤه ·· ولا يكون نصــيبه منــه الا السخرية ·

وأخيرا كتبت ·· فبلاهة العشاق تتغلب غالبا على حكمتهم ·· وهل ترك العشق للعشاق حكمة ؟

كتبت اليه ·· لا لشىء الا لأنى كنت أحس بلذة فى الكتابة ، وكانت رسالتى طويلة الى الحد الذى لم أشك بعد أن أرسلتها اليه ، أنه لن يقرأها فما أظن لديه من الوقت ما يضيعه فى قراءة عبث القراء ؟

ومر يوم ويومان ، وأسبوع وأسبوعان ٠٠ وأخيرا حمل الى البريد خطابا ٠٠ يحمل ظرفه خطا غريبا لا أعرفه ٠٠ وفضضته ووقع بصرى على الامضاء فى نهايته ، فاذا به منه ٠

وكما تعودت أن افعل بكل كتبه . طويت الخطاب دون أن أقرأه -

لا أظنك يا سيدى يمكن ان تتصور المتعة التى أحسست بها عندما وقع بصرى على امضائه الذى كتبه بخط يده ٠٠ لقد كانت أكثر متعة لى فى الحياة هى أن أقرأ شيئا كتبه ، كتبه للناس عامة ٠٠ دون أن يحس أنى واحدة من هؤلاء الناس ٠٠ فما بالك وقد كتب الى وحدى ٠٠ كتب الى خطابا لا يعنى به سواى ولا يشاركنى فيه أحد !

وأخيرا أقبل الليل ، وضمنى الفراش ، فأخرجت الخطاب بحرص ، كأنى عابدة تتبتل وتتعبد ٠٠ وأخذت اقرؤه ببطء وتأن ، كأنى أتنزه بين السطور ٠ أو أتنسم عبير الكلمات ٠٠ حتى أتيت على آخره ، وهل كان له آخر ؟ أبدا والله ، فقد كنت أصل الى النهاية لأعود الى البداية ٠٠ ثم أطويه برهة ، لأعيد نشره بعد ثوان ٠ لقد قرأته ما يقرب من الخمسين مرة ٠٠ ولم لا أقول لك انى قد حفظته عن ظهر قلب ؟

ماذا كان بالخطاب ؟ ٠٠ لا شيء ٠٠ لا شيء أبدا يستدعى ذلك الفرح وتلك المتعة ٠٠ ولكنك تعلم أن العشاق مجانين وأنهم يجعلون من « حبة » الحبيب « قبة » مليئة بأكداس النعيم ٠٠ لقد كان الخطاب لا يحوى أكثر من بضع كلمات شكر رقيقة متواضعة ٠٠ وبضع كلمات اعجاب بردى الذى كتبته له ، وبضع كلمات ــ على سبيل المجاملة ــ بأنه يسره أن أكتب اليه دائما ٠

وكأية عاشقة حمقاء ٠٠ بلهاء ٠٠ كتبت اليه مرة أخرى ٠٠ كتبت اليه أسأله رأيه فى بضعة أبيات من الشعر ، كنت قد كتبتها وتجرأت على نشرها فى احدى المجلات ٠٠ وما زالت ذاكرتى تعى منهـــا بعضها ٠٠ وهى :

لو تجـد لى بوصـال بعد ما غبت سـنينا
للهونا فى نسـيم الليـل قرب اليـاسمينا
آه لو تذكر ما مر لرجعـت الأنينـا
كم هـذا القلب اليـك وان كنت ضـنينا

وحمل الى البريد رده للمرة الثانية ٠٠ ينبئنى فيـه باعجابه بشعرى ، ويصفه بالرقة ٠٠ ولست أعلم أكان اعجابه اعجابا حقا ، أم أنه كان مجرد مجاملة ؟ على أية حال ٠٠ لم يكن أسهل على وقتذاك من أن أقنع نفسى أنه اعجاب حقيقى ٠

وكتبت اليه مرة أخرى أسأله أن يتفضل على بصورة ٠

وأقول الحق ، انى ترددت كثيرا قبل أن أطلبها فقد كنت أخشى أن تطيح صورته الحقيقية ٠٠ بالصورة التى رسمتها له فى ذهنى وأن يصرع قبح الحقيقة جمال الخيال ٠٠ أجل ٠٠ كنت أخشى أن تكشف الصورة خدعة أوهامى وأحلامى ٠

ومع ذلك فقد طلبتها منه ، ولم يرفض هو فقد حمل البريد الى خطابه الثالث وبه بعض الثقل ٠٠ وأحسست باضطراب شديد كأننى على وشك أن ألقاه ٠٠ ولم أفتح الخطاب ، بل أخفيته كأنى سارقة ٠٠ أو كما يخفى المحتاج نقودا عثر عليها فى قارعة الطريق . خشية أن يبصره أحد المارة فينتزعها منه ٠

واستطعت أن أصبر حتى ضمنى المضجع ٠٠ وفتحت الخطاب ، واخرجت الصورة ٠

وأصابتنى اذ ذاك دهشة ٠٠ وأخذت أسائل نفسى : أحقا هذا هو ؟ لا أظن ! لا يمكن ٠

كانت الصورة لفتى تشيع فى وجهه ضحكة مرحة ٠٠ تبدد من حولها هموم الحياة ٠٠ وجه ليس به أثر لتجاريب أو حنكة ، بل كل ما فيه اشراق وضياء وأمل مزدهر ٠

ورأيت الحقيقة قد كشفت خدعة الخيال ·· ولكنها كشفتها الى ما هو خير وافضل ·· وأدركت أن الأوهام والأحلام رغم قدرتهـا على التحسين ·· لم تستطع أن تسبق فى هذه المرة ·· الحقيقة الواقعة ·

وتراسلنا بعد ذلك بضع مرات ، حتى كتب الى ذات مرة يقول : « كيف أنت ؟ أخشى أن أسألك صورتك ·· فتبدد تلك الصورة التى ارسمها لك فى رأسى ·· فهل اجرؤ على سؤالك اياها ؟ أم أكتفى بصورة الأوهام ·· خبرينى ما رأيك ؟ » ·

ولقد قضيت طيلة يومى ، اتأمل كل ما لدى من صور ·· وأسائل نفسى : ترى أية صورة يرسمها فى ذهنه ؟ ·· هل تخذلنى صورتى لو أرسلتها له ·· لقد كنت حائرة فى تقدير نصيبى من الجمال · ورغم أننى كنت أحس أننى جميلة ·· فقد كنت أعلم أيضا أنه ما من امرأة لا تحس أنها جميلة ، وما من انسان يستطيع أن يرى قبحه ·

مرت الأيام — وأنا — مترددة يتغلب على الجبن ·· حتى رأيت الظروف العجيبة تضع حدا لحيرتى ، بطريقة لم أكن أنتظرها قط ·

أتدرى كيف ؟ ·· لقد لقيته وجها لوجه ·

ولم يصعب على أن أدرك — بغريزة المرأة — أن مرآى لم يخذله ، على النقيض ، لقد أحسست أننى قد صرعت صورة أوهامه ، وأنى قد هزمتها شر هزيمة ·

لا تسألنى كيف عرفت ذلك ، فليس أسهل على المرأة ، وخصوصا العاشقة ، من أن تدرك من مجرد نظرة تسرى بين الأعين ·· أنها ذات قيمة ·· وذات موضوع ·· لقد أقبل على فى سرور ولهفة ·· عندما عرف أننى أنا ·· ولم أكن بالطبع أقل منه شوقا ولا لهفة ·· ولم نكن قط فى حاجة الى تلك الشكليات التى تحدث عادة بين اثنين يلتقيان لأول مرة ، فقد كنا نحس أن بيننا قديم معرفة وسابق لقاء ·

وتحدثنا كثيرا ٠٠ وافترقنا ٠٠ وبى نشوة السكارى ٠٠ ولم أكن أصدق أننى لقيته وتحدثت اليه ، وأنه خصنى وحدى دون سائر الفتيات باقباله واهتمامه ٠٠ وكيف أصدق ٠٠ وأنا ما كنت أجرؤ أن أجعل من هذا مجرد أمنية ؟

وتكرر اللقاء بيننا بعد ذلك ٠٠٠ وفى كل مرة كنت ألقاه ٠٠ كنت أحس أن حبه يزداد نفاذا الى نفسى ٠٠ أو على الأصح ٠٠ كنت أحس أن حبه قد تطور فأضحى شيئا جديدا ٠

لقد كنت أحبه بذهنى ٠٠ فأصبحت أحب بقلبى وبكل جارحة فى نفسى ٠٠ لقد كنت أعشق كتابته فأصبحت أعشق كل شيء فيه ٠

لقد كان يا سيدى يستحق الحب ! ٠٠٠كنت أجلس اليه فأجده مخلوقا لطيفا رقيقا جم التواضع ، وهو الذى لو ملأه الغرور لغفرت له غروره ، فقد كان خير عباد الله كلهم ٠٠ أهـذا هو الذى أظنه ذا تجارب وحنكة ؟ ٠ أهذا هو الذى كتب مئات القصص عن الحب والعشاق ، والذى كان يحلل نفوسهم تحليلا لا يستطيعه الا رجل خبر أمور الغرام وشؤون الهوى ؟ ٠

لقد كان يجلس الى وكأنه تلميذ عاشق ٠٠ وكان لا يسعده قدر أن أعطيه يدى ليأخذها برفق بين يديه ٠٠ ويظل يحدثنى حديثه الطلى الضاحك الذى يغمرنى فى نشوة ممتعة ٠

لا أطيل عليك الحديث يا سيدى ٠٠ لقد ظللنا نمرح فى مرعى الهوى ٠٠ حتى سألنى مطلبا كنت أتوق اليه وأحلم به ، لقد سألنى الزواج ٠

وتمت الخطبة ، ومرت أيام الخطبة حلوة لذيذة ٠

وأخيرا تحقق الحلم الأكبر ٠٠ فتم الزواج ٠

لا أظن هناك سعادة يا سيدى يمكن أن تعادل سعادة امرأة تجد الرجل الذى أفنت نفسها فى حبه ، أضحى ملكها ٠٠ ملكها وحدها ٠٠

لا شريك لها فيه ‥ هى التى تطعمه ، هى التى تعد له ثيابه ، وهى التى تهيىء له راحته ، وهى وحدها التى ترتمى فى أحضانه فيدللها وتدلله ‥ كأنها طفلته وكأنه طفلها ‥ أى احساس أجمل من أن تحس المرأة أنها قد أضحت تملك الرجل الذى تحبه وأنه قد أضحى يملكها ٠

لقد كنت أجلس على أريكة أمامه ‥ ويداى منهمكتان فى عمل صديرى له من الصوف ، وعيناى تتأملانه وقد جلس على مكتبه وانهمك فى الكتابة ‥ فشرد بى الذهن ‥ واتصور الأيام التى كنت لا أجد فيها متعة أكثر من التسلل بقصصه وقصـــائده وكتبه الى مضجعى فأخلو بها الى نفسى ‥ وأظل أرتشف منها وأحتسى ‥ كان هو وقتذاك حلما فى رأسى ‥ وخيالا يساور نفسى ‥ ٠ وكان بالنسبة الى لا يزيد عن أبطال الخرافات ‥ كيف مر الزمن فأضحى زوجى ؟

هل كان يخطر لى على بال وقتذاك أنه سيأتى يوم أجلس أمامه هكذا لأرمقه وهو يكتب ٠

وتتملكنى اذ ذاك نشوة ‥ وتغمرنى فرحة ، فأجد نفسى قد قمت من مكانى ‥ يدفعنى دافع لا أستطيع مقاومته ‥ فأقترب منه وهو منهمك فى الكتابة واتحسس شعره برفق ‥ فيرفع الى رأسه مبتسما وتلتقى شفتانا فى قبلة رقيقة ‥ ثم أعود الى مكانى قريرة العين ٠

والواقع يا سيدى أننى لم أكن مبالغة فى احساسى بالسعادة معه ‥ فانه لم يخذلنى قط ‥ فأنت تعلم دائما أن الانســـان يخذله الواقع ٠ وانه دائما يصور لنفسه أحلاما براقة ، فلا يكاد يحصل عليها حتى تضحى حقائق معتمة ‥ ولكن لم يكن كذلك قط ‥ أتذكر كيف رأيت صورته فوجدتها خيرا مائة مرة مما كنت أتصور ؟‥ لقد كان الحال معه كذلك دائما ‥ أجل ! فكما رأيت صورته خيرا

مما كنت اتخيله ، رايت شكله خيرا من صورته ، فلما أضحينا عاشقة وعاشقا رأيت قلبه أجمل من شكله ، وباطنه أحسن من ظاهره ·· فلما تزوجنا ـ والزواج يكشف الانسان على حقيقته الخفية الكامنة ـ وجدته انسانا مثاليا ، ووجدت حقيقته المجردة ، لا عيب فيها ولا هنة·

ماذا تريد الزوجة أكثر من رجل محب ، رقيق ، عطوف هادىء الطبع ، قليل الغضب ، كثير المرح ، لا يحمل هما ·· ولا يجعلها تحمل هى هما ·· يعطيها كل حقها ، ولا يطلب منهـا الا ما تعطى ·· لا يعرف الخمر ولا يعرف الميسر ؟

لقد كان هو ذلك الرجل · هل كنت مبالغة فى احساسى بذلك القدر من السعادة بين أحضانه ؟

وكنا نهيىء فى دارنا الصغيرة كل ما نستطيع من متعة ·· فلم نكن فى حاجة الى زوار لتسليتنا · وكان كل منا يشارك الآخر فى عمله ·· فكان لا يرسل القصة أو القصيدة للنشر الا اذا قرأها لى وأخذ رأيى فيها ·· وكان كثيرا ما يدخل عليها تعديلات كنت اقترحها عليه . وكنا دائما نشترك فى تنسيق الحديقة . كما كنا نشترك فى كل شىء آخر ·

وكانت خير وسيلة لتسليتنا هى جهاز صغير لتسجيل الصوت وملء الأسطوانات ·· وكان قد أهدى له من أحد أصدقائه عنـــد زواجنا ·· فكنا نجد متعة كبرى فى تسجيل قصائده عليها ، وكنت أنا التى اقوم بتسجيلها عليه اذ كان يرى أن صـوتى جميـل فى الالقاء ، وكنت أجد لذة فى ذلك ، واذكر أن أول أسطوانة ملأتها له هى أول قصيدة نظمها عندما كان طالبا بالمدارس الثانوية ولقد كان مطلعها

يا أيهــا الرامى المســدد من عيونك بالشهب
تدمى قــلوب العاشــقين بلا نبــال أو لهب

وكان اكثر ما يطربه فى أوقات فراغه هو أن يستعيد سماع تلك الأسطوانات ٠

ومرت بى الأيام هادئة ناعمة ٠٠ وزادت سعادتنا عندما أحسست ببوادر حمل ٠

ووضعت طفلا شديد الشبه بأبيه ، وكانت ولادته عسيرة بعض الشىء ٠٠ ولكن الله سلم العاقبة ٠

أنت أب يا سيدى ٠٠ وتعرف أية بهجة يخلعهــا الأطفال على البيوت ٠٠ انى ما كنت أعرف حكمة قوله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » حتى رزقنا بذلك الطفل ٠

لقد كنت أسائل نفسى وأنا أضمه الى صدرى كيف كنت أعتبر الحياة قبل أن أنجبه ٠

ولست أكتمك القول أنه خفف بعض الشىء من اهتمامى بأبيه ، ولست أعنى بكلمة اهتمامى « حبى » فان حبى لأبيه لم يكن يستطيع أن ينال منه مخلوق ٠٠ بل أقصد بالاهتمام تلك اللهفة وذلك التدليل الذى كنت أغرقه به ٠ وقد يكون هو أحس بذلك ولكنه لم يتضايق ٠ فقد كان ذلك هو الحال بالنسبة اليه أيضا اذ كان الطفل يشغل منه كل فراغه ٠٠ وكان لا يمل من قضاء الساعات الطويلة فى تدليله وتسليته ٠

وكان اكثر ما يزعجنا هو تلك الأمراض الطارئة التى تطرأ على الأطفال كالاسهال والتسنين ٠

ومرت الأشهر ٠٠ ولا تسل عن فرحتنا عندما بدأ يحبو ثم يسير ثم يتلفظ بعض الألفاظ ك : « بابا ٠٠ وماما » ٠ لقد أخذنا من فرط فرحتنا نسجل له الأسطوانات التى لا تسمع منها اكثر من كلمات

متفرقة لا معنى لها ·· ولكنها كانت تطربنا أكثر من أعذب الألحان وأجمل الموسيقى ·

وقررنا أن نملأ له أسطوانة كل شهر ·· ونحتفظ بها لكى نهديها اليه عندما يصبح رجلا ·· لأنها ستكون أجمل ذكرى ·

ومر بنا عام وثان وثالث ·· وشب الطفل محوطا بكل وسائل العناية والرعاية ·· ولم يكن أحب الى أبيه من أن يأخذه بين أحضانه ·· ويقص عليه القصص ·

وكم كان يضحكنى أن أرى أباه ·· الكاتب العبقرى الذى طالما هز المشاعر بقصصه الرائعة وأشعاره الرقيقة وقد رقد بجوار الطفل يقص عليه سخافات تضحك الثكلى والصغير مصغ اليه بكل جوارحه يستعيده ويصحح له الوقائع تارة اخرى ·

وكم مرت ليالى الشتاء الحلوة وقد جلس ثلاثتنا أمام المدفأة وأخذت أشوى لهما « أبو فروة » وهما يزدردانه الواحدة بعد الأخرى وقد انهمك الأب فى قصة الفار المهمندار والفارة النقارة ·

ويصل الى سمعى صوت الأب مسترسلا فى حكايته : « ثم أسقطت الفأرة ذيلها فى صفيحة العسل » ·

ويقاطعه صوت الصغير قائلا فى اهتمام : « صفيحة السمن يا بابا » ·

ويراجع الأب نفسه ويقول معتذرا : أجل ·· أجل ·· وضعت ذيلها فى صفيحة السمن ·

وتنقضى الساعات الطوال ، الأب يحكى والابن يستمع · لا هذا يكل من الكلام ·· ولا ذاك يمل من السمع ·· حتى يروح الصغير فى غفوة فيحمله فى رفق الى فراشه ·

ومر عامان آخران وذهب الطفل الى المدرسة ، وكنا ما زلنا على

عهدنا فى ملء الاسطوانات .. وأضحى يسجل فيها الأناشيد التى يلقنونها اياه فى روضة الأطفال كقطتى الصغيرة .

وحاول أبوه أن يلقنه أشعاره لكى يسجلها له .. وأخذ يضع له أراجيز بسيطة حتى يستطيع قراءتها والقاءها .

★ ★ ★

وصمتت محدثتى لحظة .. ومدت يدها الى كوب من الماء تجرعت منه نصفه .. وبدا عليها كأن الحديث قد أجهدها واعتدلت فى مقعدها لتغير جلستها . ثم انطلقت تتم قصتها قائلة :

وفى ذات ليلة لا تزال صورتها منقوشة فى مخيلتى . ولا أظنها ستمحى منها أبد الدهر .. ولقد كانت الليلة الأخيرة فى شهر رمضان والبيت يفيض بالمرح والسعادة .

ولست أظنك يا سيدى الا مدركا فرحة الأطفال وابتهاجهم بليلة رمضان الأخيرة .. ليلة العيد السعيد .. وهم يودعون مصابيحهم الملونة .. وأناشيدهم الطربة المرحة ، ويعدون ثيابهم الجديدة .

فى تلك الليلة صعد ابننا الى الدار بعد أن انتهى من لهوه بالفوانيس مع بعض أطفال الجيران .. ثم بدأ يخرج حلته الجديدة ليعلقها على مقعد بجوار فراشه ووضع الحذاء الجديد أمام المقعد ووضع بداخله جوربه الجديد .

واقبل أبوه وشاهد المنظر فاستغرق فى الضحك ونظر الى قائلا :

ــ تماما كما كنت أفعل فى مثل تلك الليلة .. لا فارق بين الابن والأب

وانتهى الصغير من تجهيز ملابسه .. فحمله أبوه بين يديه وأوسعه تقبيلا وهو يحاول التملص من بين يديه . وقال الأب مغريا اياه :

ــ ما رأيك فى تسجيل اسطوانة ؟

ـ هايلة ٠

ولم يكن أحب الى الصبى من تسجيل الاسطوانات ٠٠ واقبل الاثنان يعدان الجهاز وقال الصغير لأبيه :

ـ ماذا اقول ؟

ـ سأنظم لك انشودة تناسب الليلة ٠٠ وساسطرها لك حتى تسجلها وحتى تتذكر بها ليلة العيد ٠

واخذ الأب يكتب ويشطب وبعد دقائق هز رأسه وقال :

ـ خمسة أبيات لا بأس بها ٠

وقرأها له بضع مرات ٠٠ ثم أعد الجهاز وبدأ الصغير يلقى القطعة بصوته الرقيق قائلا :

ليلة العيد فى سناك وقفنا
موكبا حافلا : بنات وغلمه
ننشد الشعر والقلوب تغنى
فى حنايا الصدور الأفراح جمه
كل طفل فى كفه مصباح
ساطع الضوء كاشف للظلمه

وهنا توقف الجهاز ٠٠ فقد أصابه عطل ، ولم تكن أول مرة يحدث فيها هذا العطل ٠٠ فقد كان الأب متعودا اياه واقبل على الجهاز يحاول اصلاحه ، ومضت فترة وهو مكب عليه ، وأخيرا رفع رأسه وقال بشىء من الملل :

ـ لا بأس ٠٠ نؤجل تكملة الأنشودة الى غد ٠ فلا شك أننى أستطيع اصلاح الخلل فى النهار ٠

ـ اذا ٠٠ تحكى لى حكاية ٠

وهز الأب رأسه بالموافقة ، وجلس الاثنان على احدى الأرائك وأخذ يقص عليه احدى قصصه حتى أسلمه الى النوم ٠

★ ★ ★

وصمتت محدثتى مرة أخرى ، ورأيت وجهها الذى كان مشرقا بالايمان قد علته فجأة سحابة حزن اليمة معتمة ، ولمحت غشاوة من الدمع قد حجبت بريق عينيها ٠٠ وبدت كأن فى جوفها صراعا يشتد أواره ٠٠ ثم انطلقت منها زفرة حارة ٠٠ حملت معها شيئا من لهيب صدرها ٠٠ ثم استرخت السيدة على مقعدها ٠٠ وبدت عليها بوادر الراحة ، وخيل الى كأنها انتصرت على أحزانها ٠٠ فقد انقشعت سحابة الحزن وانجلت غشاوة الدمع ، وعاد الى وجهها اشراق الايمان والى عينيها بريق الطمأنينة ، ثم قالت بصوت هادىء :

ـ الحمد لله ، الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ٠

وصمتت لحظة تستجمع فيها شوارد أفكارها ٠٠ ثم أردفت تقول:

ـ لقد نام ابننا العزيز ٠٠ على أن يستيقظ فى الصباح لكى يرتدى ملابسه التى جهزها بجوار فراشه ٠٠ وليتم ملء الأسطوانة بعد أن يصلح أبوه ما بالجهاز من عطل ٠٠ ومع ذلك فما ارتدى ملابسه ، وما أتم ملء الأسطوانة قط ٠

انه استيقظ قبيل الفجر ، وظلام الليل لم ينقشع بعد . استيقظ وأيقظ معه كل من فى الدار ٠٠ فقد أخذ يصيح صياحا يفتت الأكباد ٠٠ اذ كان يحس ألما فى معدته ، وحاولت تهدئته بوضع قربة من الماء الساخن ٠٠ ولكن ألمه لم يهدأ ٠٠ وخرج أبوه وهو يكاد يجن ، يطرق باب الأطباء واحدا واحدا حتى أتى بعد ساعة ومعه أحدهم ٠

وكشف الطبيب صدر الصبى ، وتسمعه بسماعته ثم نقر على صدره وعلى ظهره عدة نقرات ٠٠ ثم تحسس بأصابعه بطنه ٠٠

وبدت عليه علامات الحيرة ، وكان الصغير قد هدأ بعض الشيء ، ولكن لم تمض برهة حتى عاوده الألم ، وعاود الصياح ، وكتب الطبيب لنا بضعة عقاقير ثم حاول طمأنتنا وانصرف ٠

وفي الضحى استدعينا طبيبا آخرا ، وكان الصبي قد عاوده الهدوء ٠٠ وان كانت أنفاسه قد أخذت تتلاحق ، وبدأ يلهث كأنه يجري في سباق ٠٠ وفحصه الطبيب ، وعندما انتهى من الفحص ٠٠ أنبأنا أنها مبادئ التهاب رئوي ٠

وصدمني قوله صدمة شديدة ٠٠ فقد كنت لا اخشى شيئا كالالتهاب الرئوي ٠٠ وكنت أفزع لمجرد أن أسمعه يسعل سعالا خفيفا ، أو يصاب بزكام ٠٠ فكيف بي وأنا أراه يصاب بالالتهاب مرة واحدة ٠

وعصفت بي نوبة من البكاء ٠٠ وحاول زوجي تهدئتي ٠٠ رغم أنه كان في حاجة الى من يهدئه ٠

وبدأنا العلاج ، بالسيبازول ٠٠ والانتفلوجستين ٠

ومر يوم ويومان ، وثلاثة ، وانقضت المدة التي كان يجب أن يبل فيها الطفل ٠٠ ومع ذلك فانه لم يبل ، واستمرت الحرارة مرتفعة كما هي ٠٠ واحتار الطبيب ، وليس أشد على أهل المريض ، من أن يروا الطبيب الذي وضعوا فيه ثقتهم ٠٠ قد انتابته حيرة وأصابه قلق ٠

واستدعينا ثلاثة أطباء آخرين لعمل « كنسلتو » ٠

وأعادوا فحص الطفل ٠٠ وتشاوروا فيما بينهم ٠٠ وأخيرا استقر رأيهم على أن الطفل قد أصيب بصديد في الرئة ٠

وتلقيت الطعنة الثانية التي وجهها الى القدر ٠٠ وأحسست أني أترنح أمامها ٠٠ وأن قدمي لا تكادان تحملاني ٠٠ وارتميت على الفراش مرتجفة باكية ٠

لست أدري كيف كنت أعيش وقتذاك ٠٠ لقد كنت أشبه بجندي جريح في معركة غلب فيها على أمره ٠٠ وأصيب من هول المعركة

بذهول جعله لا يدرك شيئا مما حوله ٠٠ ولا يعرف الا أنه يسير ٠٠ الى أين ٠٠ ؟ الى متى ؟

لا يدرى !

وبدأوا يجرون للصبى العزيز عمليات البذل ٠٠ ويدخلون فى ظهره ابرة طويلة تنفذ الى الرئة لكى يمتصوا بها الصديد ٠

ولم يجد البذل نفعا ٠٠ وقالوا لنا ٠٠ جربوا « البنسلين » ٠ وبدأنا نجرب البنسلين ٠٠ وأعطى الصغير ما يقرب من مائتى حقنة ٠٠ ومرت بنا ليال كنا لا نذوق فيها النوم ٠

كل ذلك وأبوه هادىء ساكن ٠٠ يملأ الايمان قلبه وتفيض السكينة بين جوانحه ٠

تصور يا سيدى ٠٠ أنه هو الذى كان يمسك بالصبى لكى يضع الطبيب الابرة فى رئته ٠٠ لست أدرى أغلظة منـه ٠٠ أم شجاعة وايمان ٠ وكان يكره منى ذلك الجزع ٠٠ ولكن ما حيلتى فى نفسى وقد طارت شـعاعا ٠٠ أية شجاعة يطلبونها منى وأنا أرى ولدى يترنح بين براثن الموت ؟

وأخيرا قضى الأمر ٠٠ فلا نفع البذل ولا البنسلين ٠٠ ولا مهارة الأطباء ٠٠ لقد نفذ فيه قضاء الله ، ولا راد لقضائه ٠

لا تسلنى كيف ؟ ٠٠ فقد كان يوما أسود ٠٠ كنت فيه فى حالة غيبوبة وذهول ٠

ومرت بى الأيام بعد ذلك وأنا محطمة مهدمة ٠٠ لا أكلم أحدا ، ولا أرى أحدا ٠ ولا أفعل شيئا سوى النحيب والبكاء ٠ حتى زوجى الحبيب لم يستطع أن يهيىء لى العزاء والسلوان ٠٠ لقد كنت أريد ابنى ٠٠ ابنى الذى انتزعوه منى ٠٠ وأرقدوه وحيدا ، فى ظلمة قبر موحش مقفر ٠

وفى ذات يوم خرج زوجى ، وجلست فى الدار وحيدة ، واحاطتنى الهموم والخواطر واندفعت فى النحيب ·

وفجأة خطر لى خاطر عجيب ·· خيل الى انه قد يبعث الى نفسى شيئا من العزاء · وهو أن ادير بعض الأسطوانات التى ملأها ولدى ، فلا شك أن صوته سيعوضنى بعض ما أحسه من فقده ·

وترددت بعض الشىء ، فقد تملكنى من الخاطر خوف شديد ·· ولكنى قمت فى النهاية ، وتوجهت الى صندوق الأسطوانات ، فكان أول ما صادفنى هى الأسطوانة التى لم يتم ملئها ، والتى سجلت آخر ما تحدث به ولدى العزيز ·

وأمسكت الأسطوانة بيد مرتجفة ، وأنا لا أكاد أتمالك نفسى ·· ووضعتها على القرص ·

ووصل الى سمعى صوته الرقيق الحلو يكرر الأنشودة وقد ملأه المرح والأمل :

ليلة العيد فى سناك وقفنا
موكبا حافلا : بنات وغلمه
ننشد الشعر والقلوب تغنى
فى حنايا الصدور الأفراح جمه
كل طفل فى كفه مصباح
ساطع الضوء كاشف للظلمه

ونهضت من مكانى لأرفع الأسطوانة ·· وقد انهمر من عينى الدمع ، ولكنى تسمرت فى مكانى ، وأصابتنى الدهشة ·

فقد رأيت أن الصوت لم يكن قد انتهى بعد من أنشودته ، وأنه ما زال يتم الأنشودة ، رغم انه لم يكن قد ملأ منها الا الثلاثة الأبيات السابقة ·

وأصغيت الى الصوت وقد تملكنى رعب شديد ، ووصل الى صوت الصبى يتمم الأنشودة فى صوت ملؤه الألم :

آه ! أمى ! ما حيلتى وسراجى

كل ما هم أن يضىء بهمه

صابه من غزير دمعك صوب

فانطفا نوره وعاد لظلمه

ولم أشعر بعد ذلك بما حدث ٠

فقد سقطت مغشيا على ٠٠ ولم افق الا وزوجى يحملنى بين ذراعيه ليضعنى على الفراش ، واخذ يربت على بعطف وحنان ٠

وهمست فى أذنه بما حدث ٠٠ فتملكته دهشة شديدة ٠٠ وقام الى الأسطوانة ٠٠ ولكنه لم يجدها الا حطاما ٠٠ فقد سقطت عليها عندما أصابنى الاغماء فتهشمت ٠

ومنذ ذلك اليوم يا سيدى ٠٠ وانا لا ابكى قط ٠٠ لقد ملأ الايمان قلبى وافعمت الطمانينة جوانحى ٠

وصمتت السيدة ولمحت فى عينيها غشاوة دمع ما لبثت حتى انجلت ٠٠ وعاد الى السيدة اشراق وجهها وبريق عينيها ٠

امرأة شريفة

سيدى العزيز :

ترى لو صادفت قصتى هوى فى نفسك ، فاقدمت على نشرها لقرائك ·· فأى عنوان تختاره لها ؟ ! وأى كلمات رنانة تكلل بها هامتها حتى تغرى قراءك بقراءتها ؟

« امرأة ساقطة ؟ » ·· « قصة بغى ؟ » ·· « بائعة الجسد ؟ » ··

أى خلعة من هذه الخلع الزاهية تنوى خلعها على ·· دعنى أنتقى لك · فانى أعلم مبلغ ولعك بالعناوين البراقة · وماذا يضيرك وأنت جالس فى عقر دارك تحرك القلم على وريقات بكلمات قد لا يكون لها اقل اثر فى نفسك فتنال بها أجرا واعجابا ·· وماذا يضيرنى من أن تطلق على أسوأ الألفاظ وتنعتنى بأقبح النعوت ·· هل يضير الشاة سلخها بعد ذبحها ؟ ! لا ·· لا ·· يا سيدى ·· سمنى بما شئت ·· فما عاد فى جسدى بقية حس ·· أو اثر شعور ·

انا امرأة ساقطة ·· عاهرة ·· بغى ·· ! كل ما يخطر على بالك من الفاظ السوء ·· اجعله نعتا لى ·· فاننى فعلا كذلك ·

السوء ! ما معنى السوء ؟ وما معنى أن يكون المرء سيئا ؟ انا افهم أن السوء هو أن نلحق الضرر بغيرنا عامدين ٠٠ او نتمنى لهم الشقاء والتعس ، ونكره لهم الخير ونحسدهم على النعمة ٠٠ انا افهم ان معنى ان يكون المرء سيئا ٠٠ هو ان يرتكب السيئة ، والسيئة هى كل ما ينتج شرا ٠

اليس كذلك يا سيدى ، أم انا مخطئة ؟

وأنا امرأة سوء ما فى ذلك شك ٠٠ فقد اجمع الكل على انى كذلك ، وأكون حمقاء مجنونة لو حاولت انكاره ٠٠ ولكننى مع ذلك عندما أخلو الى نفسى فى بعض الأحيان فأحاول أن التفت حولى لأرى مبلغ ما بى من سوء أو احاول نبش الماضى ٠٠ لأنقب عما فعلت من سيئات ٠٠ لا البث أن أصاب بحيرة ، وأقول لنفسى : اما اننى عمياء بلهاء لا أستطيع أن ابصر بنفسى او ادرك ما فعلت ٠٠ واما اننى لست امرأة سوء ٠٠ وما كان فى كل ما اتيته أمر اد ولا فعل نكر ٠

اننى لا أتذكر قط أنى حاولت أن ألحق ضررا بأحد ٠٠ عامدة أو غير عامدة ٠٠ انى ما تمنيت لأحد شرا ولا كرهت للناس خيرا ولا حسدتهم على نعمة ٠٠ اننى لم أرتكب ما يصح أن يسمى سيئة بمعناها الحقيقى ٠٠ فما أنتج فعلى شرا قط ٠٠ وحتى هذا الفعل الذى ارتكبته - والذى يسمونه سيئا - قد ارتكبته لأننى لم اكن أستطيع الا أن أرتكبه ٠٠ فقد كان السبيل الوحيد امامى للعيش ، فسلكته ٠

هل يهمك أن تعرف كيف سلكته أول مرة ؟ هل تظن هذا من مستلزمات القصة ٠٠ انا لست قصصية حتى أعرف ما يقال وما لا يقال ٠٠ أو أعرف ما يشوق وما لا يشوق ٠ ولكنى لا اظن ان هناك ضررا من أن أبدأ قصتى من تلك النقطة ٠٠ النقطة التى اندفعت

عندها الى الهاوية ٠٠ النقطة التى أضحيت بعدها شيئا آخر غير الذى كنته ، أضحيت امرأة سوء تتردى فى الظلمات ٠

كان ذلك فى يوم ما زالت ذكراه واضحة جليـة فى راسى كانه الأمس فقط ، يوم شتاء هبت فيه موجة من البرد عاتية قارصة تحمل فى جوفها قرا وزمهريرا ٠٠ واندفعت فى الطرقات الخالية لا الوى على شىء ، وتطاردنى الريح كأنها الذئاب العاوية وقد حملت طفلتى على كتفى أحاول أن اجد لنا ماوى يقينا غائلة البرد ٠٠ ومرت برأسى اذ ذاك صورة عابرة سريعة للماضى القريب ، الماضى الممتع الهنىء ٠٠ الذى مر كأنه لمح البصر . أو كأنه حـلم « فى الدجى ، أو خلسـة المختلس » ٠

خلسة المختلس ! ما أشد هذا الوصف انطباقا على ٠٠ وعلى تلك اللحظات التى كنت أمتع بها ، أجل يا سيدى لقد كنت مختلسة . وكانت سعادتى اختلاسا . وما الذه من اختلاس ٠ لقـد اختلست زوجى ٠٠ اختلسته اختـلاسا . لأنه لم يكن لى الحق فى أن اقف بجواره مرفوعة الرأس واقول على ملأ من الناس : « هذا هو زوجى » ٠٠ لم يكن لى هذا الحق الذى لا أظنه الا حق كل انثى تعتز برجلها وتتيـــه به ، لأننى كنت أعيش كالجـــرذان فى باطن الأرض . أو كالخفافيش فى حلكات الليل . ومع ذلك فقد كنت قانعة راضية ٠٠ بل اكثر من هذا ، كنت مثلا لامرأة سعيدة هانئة ٠٠ ولكن ، ما أعجب الحياة ! يقنع البعض منها بالنزر اليسير فتأباه عليهم . وتغدق نعمها على البعض الآخر فيكفرون بهـا ٠٠ لقد كنت من القانعين بقليلى وبنعمتى المختلسة ٠٠ فأبتها على ٠٠ وحرمتنى اياها !

لقد كنت لا أجسر أن اقول انه زوجى ، لأننى كنت خادمته قبل أن أصبح زوجته ولقد كان كثيرا على أن أصبح زوجته فما كان لخادمة أن تتزوج من سادتها وأبناء سادتها ٠

اقول كثيرا ٠٠ قبل أن تقولها أنت ٠٠ فانني أعلم أنه شيء مفزع أن يتزوج ابن السيد خادمته ٠٠ ولكني في قرارة نفسي لا أحس أنه شيء كثير ٠٠ ألست انسانا يا سيدي ؟ أليس لي قلب انسان ٠٠ واحساس انسان ؟ أم ترى الخدم من جنس والسادة من جنس آخر ؟ على أية حال ٠٠ لا أظن المجال مجال مناقشة في مسألة كهذه ٠٠ فخير لي أن أسوق لك الحوادث مجردة من التعليقات ٠٠ وعقب عليها أنت كما تشاء ٠٠ فقط ٠٠ ليتك تنصفني ، فما أحسست بالانصاف مرة واحدة في حياتي ٠

لقد احببته وأنا صبية خادم ٠٠ وهو فتى في مستهل شبابه وريعان صباه على وشك أن يضع قدمه على أول درجات مستقبل زاهر متفتح ٠٠ ولست أظن في حبي له عجبا ٠٠ فقد كان كل ما فيه يحب ٠٠ خلقه وخلقه ٠٠ قلبه وروحه ٠٠ باطنه وظاهره ٠٠ كل شيء فيه جميل محبب ٠٠ وقد كان من المحتمل أن تمر المسألة مرورا عابرا ٠٠ وأن يظل مستكنا في صدري ٠٠ حب خادم لسيدها ٠٠ حب لا ينبغي له الا أن يطوى في الحنايا ٠٠ ويحبس في الضلوع ٠٠ لولا أن همسات القلب ـ على خفوتها وعلى محاولتي كتمانها ـ قد وجدت لها سميعا مجيبا ٠٠ ولولا أن داء الفؤاد قد وجد له من الحبيب آسيا وطبيبا ٠٠ لقد أحبني الفتى السيد !

أتراه شيئا يبعث على الدهش أن يحب سيد مثله خادما مثلي ؟ مهما يكن الأمر فهذا هو ما حدث ٠٠ فالقلوب مجنونة ٠٠ ما خلق الله في الانسان أحمق منها ولا أخرق ٠٠ تندفع في الحب بلا روية ولا تفكير ٠٠٠ ما استطاع امرؤ قط أن يسيطر عليها أو يتحكم فيها ٠

لقد احبني الفتى السيد ! ٠٠ كيف ؟ ٠٠ ولم ؟ ٠٠ لست أدري ! أترى كان بي ما فتنه وأغراه ؟ ٠٠ أترى كان بي جمال حرك قلبه ٠٠ ؟ كيف كنت وقتذاك ؟ ٠٠ ماذا أقول لك ، وليس من اليسير على المرء

أن يصف نفسه ٠٠ وخاصة المرأة ٠٠ اذا قالت جميلة فكل امرأة تظن نفسها كذلك ،. واذا تواضعت فانكرت على نفسى الجمال ٠٠ عزت على نفسى ٠٠ التى لم ينصفها أحد ٠٠ حتى انا ! على أية حال لقد قالوا : « حسن فى كل عين من تود » وما دام الفتى قد أحبنى ٠٠ فلا شك انى كنت حسناء فى عينه ٠

قد تقول ان الفتى اشتهانى ٠٠ مجرد شـهوة ٠٠ كما يشتهى السادة خدمهم فى بعض الأحيان ٠٠ ولن أنكر عليك قولك فقد يكون به شىء من الحقيقة ، ولكن ما الحب ؟ وما الشـهوة ؟ هل يمكن أن نجعل من كل منهما شيئا منفصلا ، ليس لأحدهما صلة بالآخر ٠٠ هل الحب شىء والشهوة شىء ؟ لا أظن ٠٠ وانا كامرأة ٠٠ أقول لك ان الحب لا بد أن ينتهى الى شهوة والشهوة لا تطفئه بل تسقيـه وتنميه ٠٠ والا جف وذوى ٠٠ اما الشهوة فلا يثيرها الا من نحب ٠٠ فالحب والشهوة شيئان يتمم أحدهما الآخر ٠٠ فلا حب بلا شهوة ولا شهوة بلا حب ٠ ولم لا أكون أكثر صراحة ، فانبئك ان الحب يبلغ أقصاه عندما تبلغ الشهوة اقصاها ٠

لا تقل ٠٠ حديث امرأة بغى ٠٠ فكلنا فى هذا الأمر سواء ٠٠ البغايا وغير البغايا ٠٠ كل ما فى الأمر أننى فقط أجرؤ على قوله ، وغيرى لا يجرؤ ٠

لقد أحبنى الفتى السيد ! ولنفرض أن حبه قد بدأ مجرد شهوة ٠٠ ماذا يضيرنى كيف بدأ ٠٠ ما دام قد أخذ يتطور ويتمكن فى قلبه على مر الأيام ؟ ٠ وما دمت قد بدأت أجد لنفسى فى قلبه موضعا هو أقصى ما أتمناه ؟ !

أجل يا سيدى ، قد يكون حبه بدأ مجرد اشتهاء ٠٠ ولكن الأيام جعلت منه بعد ذلك حبا قويا مخلصا ٠٠ عنيفا جارفا ٠٠ لا يعوقه حائل ٠٠ ولا تقف فى طريقه عقبة ٠

ولقد مرت الأيام وعلاقتنا ـ ولا أقول حبنـا حتى اثبت لك بما لا يحتمل الشك أنه قد صار حبا ـ يطويها الكتمان ، حتى أحسست ذات يوم انني قد حملت ·· فتملكني حزن وقلق واحسست بخوف شديد ·· وخشيت ان اصارحه ·· خوفا من أن احمله عبئا يرهقه ولكنه أحس بي قلقا ·· وألح في معرفة السبب ·· فانبأته ·

ولو كان احساسه نحوى مجرد شهوة · لأفزعه الأمر ولحاول جهده التخلص مني ·· ولأحس بي عبئا يثقل كاهله ويقوض ظهره ·· ولو فعل ذلك لما أثار فعله شيئا من الدهش ، ولكنه لم يفعل ·· بل أمسك بوجهي في رفق بين يديه ومسح بشفتيه دموعا ترقرقت في عيني وسالت على صفحة وجهي ·· وانبأني بصـوت هامس اننا سنتزوج ! قول عجيب ·· لا يصدقه عقل ! فالرجال انانيون ·· لا يسعهم في مثل هذه الأحوال الا أن يلقوا العبء على سـواهم ويحاولوا التخلص منه بأقرب وسيلة ·· ولكن الفتى لم يفعل ·· بل سألني الزواج ·· ولا اظن هناك ما يمكن أن يبرر تصرفه ·· أو يدفعه الى ما فعل ·· الا شيئا واحدا هو الذي يدفع الانسان الى فعل كل عجيب وهو الحب ·· أجل ·· لقد كان يحبني ما في ذلك شك ·

ولم تكن مسألة الزواج من السهولة بحيث لا تعدو مجرد عرض منه وقبول مني ·· فقد كان علينا أن نتوقع ثورة من أهله ·· ومن أقربائه ·· وأصدقائه ·· بل ومن كل انسان له به أدنى علاقة ·· فما كان زواج فتى في مثل مركزه بخادم مثلي بالشيء الذي يقبله العقل بسهولة ·· وكنت اكره أن أعرضه لتلك العاصفة ·· فقلت له اني سأفر من الدار وسأبعد عن طريقه ·· وأعرف كيف ادبر أمري · ولكنه هز رأسه بشدة ، وانبـأني أنه هو الذي سيعرف كيف يدبر أمرنا معا · ولقد استطاع فعلا أن يدبر أمرنا معا ·· على خير حال ،

ودون أن نثير حولنا اية عاصفة ، فقد استاجر لى سرا شقة صغيرة فى حى متواضع ، وفررت من الدار اليها ·· وعقدنا زواجنا سرا ·

وبدات احيا حياتى الجديدة ·· التى قلت لك عنها ، انها كانت خلسة المختلس ·· ولقد كان كل همى وهمه أن نستر أنفسنا ، فكان يزورنى خفية فى أوقات متقطعة كاننا لصوص نقتسم غنيمة مسروقة ·· ولقد كنا فعلا كذلك ، لقد كنا نقتسم لحظات هنيئة سرقناها فى غفلة من الزمن ·

وكانت تمر بى أوقات تنتابنى فيها نوبات من الحزن عندما أخلو الى نفسى فأرانى احيا حياة الجرذان ·· وعندما احس اننى لا اجرؤ أن أقول اننى زوجته حتى لا أشين سمعته واسبب له مهانة بين الناس ·· ترى أهناك ما يحز فى النفس ويورثها الحسرة اكثر من أن يجد الانسان نفسه مبعث مهانة ومصدر ازدراء لأعز الناس عليه وأحبهم الى قلبه ·· ومع ذلك فقد كنت سعيدة كل السعادة ·· اذ كانت لحظات اللقاء تبدد تلك السحب القاتمة التى تتجمع فى نفسى ·· وكنت أنسى كل شىء عندما احس به يضمنى الى صدره ·

وأخيرا وضعت طفلتى ·· صورة طبق الأصل منه ·· جميلة التقاطيع ·· نبيلة الملامح ·· طبع على محياها ابتسامة جذابة ·· لقد كانت ابنة السيد لا ابنة الخادم ·

وملأت الطفلة حياتى بهجة وحبورا ·· ولم أعد احس بالوحشة فى غيابه ، ولم تعد تضنينى الوحدة كما أضنتنى من قبل ، وقد سر أبوها أيما سرور ، واحبها حب عبادة ·

ومرت الأيام وأنا قريرة العين هانئة ·· قانعة بأحلام الدجى وخلسة المختلس ، حتى احسست فجاة أنى افيق من الحلم لأجد الزمن قد أبى على القليل الذى سعدت به ·· ولأجده قد ضبطنى متلبسة بجريمة اختلاس لحظات هنيئة فى غفلة منه ، فقبض على

عنقى ، ونزع غنيمتى من بين يدى . أجل لقد انتزع منى زوجى ، أو قل لقد انتزع روحى ، وتركنى جسدا بلا روح .

لقد مات زوجى الحبيب ... زوجى الذى ما جسرت فى حياته أن أقول انه زوجى ، والذى كنت اذا ما ضممته الى صدرى انتابنى احساس اللص يتسلل بغنيمته فى الظلمة يضمها الى صدره خشية أن يستردها الشرطى ، وذهبت الى قبره لأبكيه ، لا كزوجة بل كخادم فقد كرهت أن أثير حوله العاصفة التى تجنبناها فى حياته .. ثم أى شىء سيعود على من أن أعلن اننى زوجته سوى سخط أهله وغضبهم على . لا .. لا .. خير لى أن أكون شجاعة فأحمل العبء وحدى .

ولقد كان العبء يا سيدى ثقيلا .. ليس بالنسبة لى .. فلقد كان على أن أحتمل الفجيعة ، وأن اصبر على قضاء الله .. وأتعود الحلكة التى شملتنى بعد موته .. أجل .. لقد كان الأمر ــ على مرارته ــ محتملا بالنسبة لى .. ولكن .. عندما كنت أفكر فى الطفلة .. كنت احس بالاختناق .

هذه الطفلة العزيزة .. الجميلة النبيلة .. التى كنت أدبر لها فى رأسى كيف أربيها وأنشئها نشأة السادة ، وكيف كنت أنوى أن أجعلها ابنة أبيها .. وان اجعلها خير الفتيات .. قد أضحيت لا اكاد أعرف كيف أجد لقمتها .

وطردت من البيت بعد فترة من الوقت .. فقد كنت لا أملك أجره وحملت طفلتى أهيم بها فى الليلة الليلاء القارسة البرد .. لا أكاد أجد ما يقينى سر البرد وغائلة الجوع .

ومرت بى الأيام .. طريدة شريدة .. أجول وأستجدى حتى وجدتنى فجأة أقف أمام المسلك البراق والطريق الملىء بالأضواء .. تغرينى أضواؤه بالدخول اليه . وبأن أكف عن أن أكون امرأة شريفة

تتضور جوعا هى وابنتها ·· ابنة السيد العزيز ، ولو كان الأمر يقتصر على لاستطعت أن أحتمل ·· ولاستطعت أن أبقى شريفة مدى الحياة ، ولكن ابنتى يا سيدى ، ما ذنبها ؟ ما ذنبها ؟ هل اضحى بها ·· لمجرد أن يقال عنى امرأة شريفة ؟ لا ·· لا ·· يجب الا اكون أنانية ·· انى أريد النقود لتربيتها ، والطريق امامى ملىء بالنقود فلم لا أخوضه ؟

وبدأت حياتى الجديدة · ولم تكن بالسهولة التى تصورتها . فقد كانت حياة جهاد . لاقيت فيها الأمرين . ولكنى استطعت النجاح وأخذت أنتقل من درجة الى درجة . من امرأة شارع . الى امرأة بيت ·· الى امرأة صالة ·· الى راقصة ، وفى كل مرحلة من مراحل حياتى الفاجرة . لم يكن همى سوى جمع النقود لتربية ابنتى . ولقد نجحت كل النجاح ، واستطعت أن أربيها كأبناء السادة ·

أنا الآن يا سيدى امرأة فى خريف العمر . ولقد تخرجت ابنتى فى الجامعة ·· نموذجا للفتاة ·· فى الجمال والكمال ، فى الخلق والخلق ·· لا أقول ذلك لأنها ابنتى ، فكل من رآها قال عنها ذلك ، وكل من صادفها قال عنها انها مثل أعلى ، منزه عن العيوب . اللهم الا عيب واحد ·

ماذا تظن ذلك العيب ؟ خمن يا سيدى ؟ ما هو ذلك الشىء الوحيد الذى يقولون عنه انه يعيب فتاتى ! انها ابنة راقصة !

تصور يا سيدى أننى ، أنا . ذلك العيب الوحيد ·

تصور بعد هذا الذى فعلته . لا أكون بالنسبة لابنتى فى نظر الناس ، سوى شىء يعيبها ؟ · وهى تحس ذلك ·· لا اقول انها تخجل منى ، فهى تحبني حبا جما ، وتقدرنى كل التقدير . وتعرف كل ما فعلت من أجلها ، ولكن كل ذلك لا يمنعها من أن تحس أن الناس يروننى شيئا يشينها ·· لقد خطبت ثلاث مرات . خطبها أناس

صادفوها فاعجبوا بها ايما اعجاب . ولكنهم تركوها كلهم ، عندما علموا أنها ابنتى .

أنا حزينة يا سيدى ، وحائرة . انى عقبة فى طريق ابنتى ، وبودى لو أزلت نفسى من طريقها ، حتى أتمم ما فعلت من اجلها ، ولكن كيف ؟ . بالانتحار ؟ لا أظن ، فسيثير ذلك ضجة من حولها تضرها كل الضرر .

ألا توجد طريقة للموت البطىء . الموت الذى يبدو طبيعيا فلا يثير ضجة ؟ . اننى أحس أننى قد أديت واجبى .. وأن واجبى الآن هو أن أذهب عنها ، حتى أزيل عنها ما يشينها . هل من طريقة للذهاب يا سيدى ؟

★ ★ ★

هذا الخطاب من راقصة قديمة وصلنى منذ بضعة أشهر ، أبكانى فطويته . وتمنيت لو لم أكن متزوجا حتى أذهب الى الفتاة فأتزوجها وأنا رافع الرأس فخور بها وبأمها .

ولقد ألقتنى الظروف بعد ذلك فى طريق الفتاة .. فوجدتها مثلا أعلى ونموذجا للفتاة ، حتى هذا العيب الذى كان الناس يرونه بها ، قد ذهب ، لقد ماتت أمها ! كيف ماتت ؟ لست أدرى .

بقيت لى كلمة قصيرة . دعونى أسوقها الى المرأة فى قبرها فقد يكون لها فيها عزاء .. ان كان الموتى يطلبون العزاء

سيدتى .. لقد اتهمتنى بأنى أحرك القلم على وريقاتى بكلمات قد لا يكون لها أقل الأثر فى نفسى ، سامحك الله ، فما كنت قط كذلك .. اننى لا أكتب الا حين أشعر ... ما رأيك فى العنوان ؟ . اننى مقتنع به كل الاقتناع .. فانت امرأة شريفة .. بل أشرف امرأة صادفتها ، ولو قلت عنك غير ذلك لكنت أحمق لا أعرف مقاييس الشرف !

امـــرأة عـــفور

حدثنى صاحبى قال :

ــ دعنى أذكر لك كيف كنت فى صباى أسير فى محيط الظلمات ·· ظلمات الفقر والوحدة والوحشة ، وكيف بارحت بلدتى الى القاهرة وأنا صبى صغير لأتلقى العلم ، وكيف كنت اقطن فى حجرة رطبة مظلمة أنا وخمسة صبية اقتطع اهلوهم من أرزاقهم أجور تعليمهم وأخذت أنتقل من مرحلة الى مرحلة وأنا مثل لتلميذ قروى فقير ·· يبدو عليه الحرمان فى كل مظهر من مظاهر الحياة : المأكل والملبس والمسكن · ومع ذلك فقد دأبت على السير ·

واستطاع الأهل أن يقتروا على أنفسهم ليقتصدوا ما يكفى لدفع المصروفات ·· حتى رزئت بموت أبى ، وهنا كان أمامى أن اسلك احــد طريقين : اما أن أعود الى القرية متناسيا تلك المرحلة التى قطعتها من مراحل التعليم ، واما أن أكافح وحدى حتى أصل الى نهاية الطريق ، ولم يطل بى التفكير حتى اخترت الأمر الثانى اذ كان من العسير على وقد قطعت نصف المرحلة أن أعود أدراجى الى حيث كنت ·

وبدأت كفاحى ٠٠ كفاحى من أجل لقمة العيش ٠٠ وكنت وقتئذ فى السنة الرابعة الثانوية والتحقت بعمل تافه كنت أكاد أحصل منه على ما يقيم أودى ٠

واخــذت فى الاستذكار حتى استطعت الحصــول على شهادة الدراسة الثانوية ٠

ومرت بى الأيام فوجدتنى أخوض غمار وسط جديد ٠ اذ حاولت أن أجد من الصحافة موردا للرزق ٠٠ وكنت أعرف زميلا لى يكتب فى احدى المجلات أخبار المسارح والصالات ويحصل من ذلك على أجر زهيد ما كان أحوجنى الى مثله فى ذلك الوقت ٠

وبدأت أترسم خطاه ، وكان الأمر يحتاج منى أن أندفع الى هذا الوسط الغريب عنى ، وأن أختلط بأهله وأتتبع أخبارهم ٠٠ ولست أكتمك أنه لم يكن أحب الى نفسى من ذلك ، فقد كان الوسط — على انحطاطه وفساده — مليئا بالفتنة والاغراء ٠٠ ولم يكن أسهل على نفس فتى قروى فقير محـروم من الاندفاع الى حيث يجـد الفتنة والاغراء . ورغم ذلك فقد كنت حكيما ، متئدا ، فلم أنزلق كل الانزلاق، ولم أجعل من عملى فى ذلك الوسط الا وسيلة تعيننى على الحياة

وفى وسط تلك الظلمات الحالكة — التى احتاطت بى — بدت لى فى الأفق بارقة تستدعينى ٠٠ أنا الذى لم تسنح فى ظلماته بارقة ولا أشرق سنا ٠

رأيتها أول مرة تغنى فى احدى الحفلات الخاصة وأستطيع أن أؤكد لك أنه لم يكن بها جمال خارق أو فتنة صارخة ٠٠ بل كانت تتساوى مع غيرها من المطربات والراقصــات اللواتى طال عهدى بهن حتى أضـحين لا يحركن فى ســاكنا ٠٠ وباتت نظــرتى اليهن لا تزيد عن نظرتى الى الدمى والعرائس الخشبية ٠ ولكن مع ذلك لم أكد أنظر اليها وأستمع لغنائها حتى غمرنى احساس جارف

قوى يدفعنى الى أن أذهب اليها فأحتويها بين ذراعى . لقد شعرت أنها مخلوقة ، مرهفة الحس ، تختلف كثــيرا عن هؤلاء الزائفات التافهات اللاتى تعودت أن القاهن فى هذا الوسط . وأقبلت عليها فى شوق ولهفة ، وأنا اشعر فى قرارة نفسى أن هذه المخلوقة لى ، وانى وحدى مالكها وصاحبها . ولم يخدعنى حسى فقد اقبلت على هى الأخرى .. وأدركت من نظراتها أننى أعنى شيئا لديها .. فملأتنى النشوة واستخفنى الطرب ، وخاصة أننى لم اكن بخير الحاضرين لا شكلا ولا موضوعا حتى تخصنى وحدى بذلك القدر من الاهتمام والاقبال التى شملتنى بهما .

ومنذ تلك الليلة أصبحت غريق هوى .. فاغمضت عينى الا عن صورتها ، وتصاممت الا عن صوتها . وأخذت أدبر أمرى باعتبار أنها شىء لا أستطيع العيش بدونه .. وبدأت أفكر جديا فى زواجها .. ورغم أننى كنت واثقا من حبها لى ومن أنه لا يسعدها شىء كزواجنا .. فقد ترددت فى الأمر كثيرا ، لا لأنى لم اجدها كفئا لى ، بل لأننى لم اكن كفئا لها .. أجل ! انى لم أكن أملك المال الذى يهيىء لهــا الحياة التى تتوق اليها ، أو على الأقل يجعلها تعيش كما هى فى بسطة من العيش وفى رغد من الهناءة .

وفى ذلك الوقت بدت لى فرصة سانحة لكى اكون خيرا مما انا ، ولكن كان يتحتم على أن اغادر القطر لبضع سنين .. ودفعنى أمل الشباب وحافز الحب الى أن أقدم على السفر حتى أعود وبنفسى تلك الثقة التى كنت أفتقدها وقتذاك .

وأنبأتها بما عزمت عليه .. فاصابتها الدهشة وحاولت أن تثنينى عن السفر ، ولكنى قد حزمت أمرى .. وأخيرا افترقنا وبنفسينا لوعة .. وهمست فى أذنى أن صورتى لن تفارق مخيلتها ، وأنها ستذكرنى فى كل لحظة .. وأنها ستعد الأيام حتى أعود .

ولست أدرى كيف ينقلب عزم الانسان فيتحول فجاة الى ضعف وتخاذل ‥ انى لم اكد أبدأ الرحيل يا سيدى حتى أحسست بانهيار فجائى ، وبحنين الى صاحبتى ‥ واخذت أسائل نفسى : أى حمق دفعنى الى الرحيل ؟ · لم لم امكث معها وانعم بقربها حتى يفعل القدر بنا ما يفعل ؟

ولم تكن هناك فائدة من هذا التخاذل فقد قضى الأمر · ولم يكن على الا أن أتماسك واحتمل الرحيل ، وان أحتمل كذلك فرقة الأعوام الطويلة ·

ولك أن تتصور يا سيدى كيف مرت بى الأعوام فى غربتى مليئة بالوحشة والكآبة ‥ يعصف بى الحنين ويضنينى الشوق · ولم تبارح صورتها مخيلتى لحظة واحـــدة ‥ أراها فى كل ما أبصر وأحس بها فى كل ما افعل ·

واعتنق الغصن الرطيب لقدها

والثم ثغر الكاس أحسبه فاها

لا يكاد يعيننى على الفرقة الا رسائلها الحارة الملتهبة ، والتى لم تنقطع الا قبل عودتى ببضعة أشهر كنت خلالهـــا أتقلب على جمر القلق ونيران الآسى ‥ وأخيرا حل موعد العودة ، ولا تسال عما كنت أحس به من اضطراب اثناء عودتى ، وكيف أصـــور لنفسى لقاءها ‥ ماذا افعل ، وماذا تفعل هى ، وأرسم فى ذهنى التفاصيل والحذافير وأحس منها بنشوة ومتعة ·

ووصلت الى القاهرة ‥ وذهبت الى دارها ‥ وسالت عنها ‥ فقيل لى انها انتقلت من الدار ، وأحسست بالخيبة · ولكن لم يكن من العسير على أن أعرف عنوانها الجديد · فانطلقت اليه ‥ وطرقت الباب ، فأجابنى صوتها ، أجل صوتها هى ، فقد نفذ الى قلبى فجعله

يكاد من فرط الطرب يرقص ، وفتحت الباب ، ووقفت امامى بلحمها ودمها بعد طول غيبة ٠

ونظرت الى فى دهش شديد . وتراجعت بضع خطوات فدلفت الى الداخل ووجدت فى الجو شيئا غريبا لم افهمه ٠٠ شيئا استطعت أن أحس به ، ولكننى لم أدرك كنهه ٠٠ شيئا بدا لى جليا من نظراتها المليئة بالدهشة التى يشوبها شىء من الذعر ومن لقائها الذى لم اكن أتوقعه ٠

واندفعت اليها أضمها الى صدرى فقد خيل الى أن الأمر كله ليس الا مظهرا لمفاجاتى لها ٠٠ ولكنى أحسست بها تتخلص من بين ذراعى وتدفعنى بهدوء ثم تنبئنى انها قد تزوجت ٠٠ تزوجت ؟ ! هى تزوجت ؟ أيمكن أن يكون هذا معقولا ؟

أية صاعقة انقضت على رأسى فتركتنى فاقد الحس غائب الوعى ٠

من يكون ذلك الشخص الذى احتواها حتى لفظتنى من أجله ؟

لقد كان صاحب المسرح الذى تعمل به !

ووقفت أمامها ، شاردا حائرا ، جامدا مذهولا ٠

آى يا سيدى لو أدركت المشاعر التى كانت تصطخب فى صدرى وقتذاك ٠٠ وأنا أرى حبيبة العمر التى شددت قلبى اليها وربطت مصيرى بمصيرها وخذلتنى ولفظتنى لفظ النواة ٠٠ وأنا الذى آثرت الغربة والفرقة لكى أستطيع أن اهيىء لها الراحة والهناءة ٠

وانتابتنى فجاة ثورة من الغضب ٠٠ عاصفة عاتية ٠٠ وتبدد الحب من نفسى فانقلب بغضا شديدا ٠٠ وتملكتنى رغبة جامحة فى أن أحطمها كما حطمتنى ، وأمسكت بها بين يدى أهزها هزا عنيفا ٠ ووقفت تنظر الى وقد تملكها ذعر شديد ٠ وحبست الكلمات فى صدرها ، فلم تستطع النطق ٠ وحاولت عبثا أن تتخلص من بين ذراعى ، وأخيرا دفعتها دفعة قوية ألقت بها على الأرض ٠

وعندما سقطت اصطدم رأسها بآنية نحاسية قد وضعت فى ركن الغرفة ·· ووقفت لحظة أحدق فيها وأنتظر أن تنهض أو تتحرك ، ولكنى لم أر فيها عضلة تختلج ·· بل رأيت الدم يسيل من جرح فى مؤخرة رأسها . فأحسست بأطرافى تتجمد ووقفت برهة لا أحرك ساكنا ولا أحس بشىء ·· فقد كنت فى حالة ذهول تام ، ثم بدأت أفيق لنفسى ، واقتربت منهـا أتحسسها بيـدى ، فاذا هى جثة هامدة لا حراك بها !

هل سبق لك أن قتلت انسانا يا سيدى ؟ · وأى انسان ؟ انسان تجد فيه توأم روحك ونصف نفسك ؟ · طبعا لا · اذن فمن العبث أن احاول ان أبين لك مشاعرى فى تلك اللحظة المخيفة ·· لحظة أن أكتشف أننى قتلت صاحبتى . لقـد اجتاحت نفسى عاصـفتان من المشاعر · عاصفة من الشعور بالوزر والخوف الشديد من نتائجه ، وعاصفة اخرى من الحنين القوى والحب الجارف ·

ومضت لحظة وأنا ثابت فى مكانى تتنابنى الأحاسيس المتناقضة المختلفة . وأخيرا تغلب الشعور بالخوف وطرد من نفسى كل ما عداه من المشاعر . فوجدتنى أتسلل من الغرفة . تاركا كل شىء على ما هو عليه . وانطلقت من الدار هاربا ·

انطلقت فى طريقى ·· مجرما يطارده شبح جريمته ، وقاتلا تقض مضجعه الوساوس وتلاحقه الأوهام ·

وفررت من القاهرة الى احدى القرى النائية . ومرت الأيام وأنا قابع فى مخبئى منقطع عن العالم تمام الانقطاع حتى بدأت نفسى تهدأ بعض الشىء ·· ثم ألقت بى الظروف الى رجل طيب يملك مطحنا لطحن الغـــلال ، فاستخدمنى كاتبا فى مطحنه ، واحس الرجـل بالاطمئنان الى وأحسست بالاطمئنان اليه ، فوثقت عرى الصداقة بيننا وازدادت ثقته فى على مر الأيام ·· وسرنى منه انه لم يحاول

أن يزج بنفسه فى ماضى ، ويثقل على بأسئلة قد أجد منها حرجا ، بل أخذنى على علاتى ، وقبل بسهولة تلك الرواية التى رويتها عن نفسى ·· والتى أخفيت منها كل ما قد يكشف عمن أكون ، أو عن الجريمة التى خلفتها ورائى ·

وكانت للرجل ابنة ، لم اكن ارى فيها اكثر من طفلة لاهية ·· ولم أحاول أن اتخيلها اكثر من انها طفلة لاهية ، وان كانت هى فى الواقع أكثر من ذلك الخيال ·· اجل لقد كانت من نوع عجيب ·

أتدرى ذلك النوع من الفتيـات التى اذا ما قلت عنهـا ابنتك صدقوك ، واذا ما قلت عنها زوجتك لم يكذبك أحد ؟ ذلك النوع الذى يطالعك من وجهه طهر الطفولة وبراءتها ، ويبهرك من جسده سحر الأنوثة وطغيانها ·· لها وجه طفلة على جسد امرأة ·· ذلك الشعر الذي ينساب على ظهرها انسياب الغدير ، وهاتان العينان الصافيتان، وثغرها المتلألىء وجسدها الممتلىء المشوق الذى يفيض بالحيـاة والذى يجعلها لا تسير كما نسير ·· بل تقفز وتتوثب

لا تظن وصفى لها وصف معجب مأخوذ ·· فانى يا سيدى قطعا لم اكن أنوى أن أشتبك معها فى معركة غرام ، لأنى ــ كما قلت لك ــ لم اكن أرى فيها أكثر من طفلة ، وفوق ذلك لم اكن قد أفقت بعد من حبى الأول ولم أكن فى حالة من راحة الضمير وهدوء النفس بحيث يسهل على أن أقدم على هوى أو أقع فى غرام ·

ومع ذلك ·· ومع كل ما سلف ذكره ·· وقعت فى الشرك ·· لا تسلنى كيف ؟ لا تسلنى لم ؟ الا اذا كنت تسمح لنفسك أن تسأل مجنونا لم جن ، أو ميتا لم مات ؟ هذا قضاء الله ولا راد لقضائه ·

وبدأ الأب بدوره يحس هواى ، وبدا لى من تضييقه الخناق علينا أنه يخشى مغبته ، فوجدت من الخير أن أشعره اننى لا ألهو وأنى ارغب فى الزواج من ابنته ·· وبدأت ألمح له بذلك فلقيت منه ترحيبا ·

وتمت الخطبة بيننا ، وكان كل ما حولى يبعث على الاطمئنان والهدوء ·· ولكننى مع ذلك كنت أحس قلقا ، وكان يخيل الى دائما أن ذلك الهدوء الذى يحيط بى ليس الا الهدوء الذى يسبق العاصفة ، وكنت أعتقد فى نفسى اعتقادا جازما أن العاصفة آتية لا ريب فيها ·· عاصفة جارفة لا تبقى ولا تذر ·

وكان المفروض أن حب صاحبتى سيخفف عنى شعورى بالوزر ، ويذهب عنى وطأة الضمير ·· ولكنى رأيت الأمر على النقيض ، فقد بدأ الاحساس بالجرم يتضاعف ·

واستمر قلقى يتزايد لحظة بعد لحظة ·· ويوما بعد يوم · حتى كان ذات يوم وقعت الواقعة فقد أبصرت شرطيين يقبلان على ·· فأحسست برجفة ·· وانتابنى فزع ، ورغم أن الشرطيين لم يكونا قد قدما الا لمخالفة تافهة وقعت من المطحن ، الا أننى لم أتريث حتى أعرف سبب قدومهما ·· بل أيقنت أنهما قد حضرا ليقبضا على ، واندفعت كالمجنون الى صاحب المطحن ·· لأعترف أننى القاتل ·· وأذكر له قصتى ، وأقول له اننى قد خدعته ، ووقف الشرطيان ينظران الى فى دهشة كأننى مخبـول أو مجنـون ·· ثم أنبآنا عن سبب قدومهما ·

وكدت أصعق يا سيدى ، ومع ذلك فانى لم أندم ولم أتراجع ·· الى متى أظل هكذا مثقل الضمير مرتعد الأوصال ؟ الى متى هـذا الفزع الدائم والخوف المستمر ؟ ماذا يمكن أن يصيبنى أكثر مما أنا فيه ؟ · ان الموت خير من توقعه ·· والسجن أفضل من انتظاره ، أجل ! لا شىء هناك شر من هذه الوساوس التى تنهش صدرى ·

وقادونى الى المركز ·· وأودعت السجن فى انتظار ما يسفر عنه استفهامهم عن حقيقة الجريمة من محافظة القاهرة ومر يومان وأنا ملقى فى السجن جسدا بلا روح · وفى صباح اليوم الثالث ،

طلبنى المأمور ، لا ليرسلنى الى سجن القاهرة ، بل ليطردنى من أمامه شر طردة ٠٠ وينذرنى بألا أحاول ازعاجهم بالتبليغ عن جرائم وهمية بعد ذلك ، فان المطربة المذكورة قد ماتت حقا ، ولكن وفاتها كانت طبيعية ٠

أية دهشة تملكتنى وقتذاك ؟ كيف استطعت ان احتفظ بصوابى فلم أجن ؟ لقد سرت فى طريقى شاردا ذاهلا ، وتوجهت الى بيت الرجل صاحب المطحن ٠٠ فاذا به يوصد بابه فى وجهى ٠٠ ويطردنى شر طردة ، لأنه لم ير فى الا أحد رجلين : اما مجرم أو مجنون ! ٠ ولقد كان الرجل معذورا حقا ٠

وذهبت أهيم على وجهى عائدا الى القــاهرة ٠٠ ذليل النفس ، كسير القلب ٠٠ وساقتنى قدماى من حيث لا أشعر الى بيت صاحبتى الأولى ٠

لقد وجدت الدار قفرا بلقعا ٠ لقيت بها زوج صاحبتى ، صاحب المسرح ، وقد طوته الوحدة والوحشة وبدا محطما مهدما ٠٠ ورحب بى الرجل وجلسنا نتحدث عنها ٠٠ وفجأة رأيته يرفع رأسه ثم يقول :

ـ لقد أجرمت فى حقك وفى حقها ٠٠ لقد سلبتك اياها وسلبتها اياك ٠٠ لقد كنت أريدها فمنعت عنها رسائلك فى الأشهر الأخيرة وأنبأتها أنك قد تزوجت ٠٠ وظللت بها أغريها بزواجى وأضيق عليها الخناق حتى قبلت ٠٠ ولكنى كنت أحمق ٠٠ فما استطعت قط أن أستولى على قلبها فلقد ظل ملكا لك ٠٠ انها ما نسيتك لحظة واحدة ٠

وأحسست برعدة فى بدنى وغصة فى حلقى ، ووجدتنى أسأله بصوت مبحوح ، ذلك السؤال الذى ليس هناك أدرى منى باجابته : « كيف ماتت ؟ ! » ٠

فأجاب :

ـ لقد عدت الى الدار ذات يوم فاذا بها ملقاة على الأرض تلفظ

انفاسها الأخيرة وقد أصيبت بجرح فى رأسها ·· وفى سكرة الموت انبأتنى أنها احست باغماء وأنهـا هوت الى الأرض ·· فلقد كانت حاملا ·

وصمت كلانا فلم ننبس ببنت شفة ·

آه يا سيدى لو تعرف كيف أدمى قـول الرجل قلبى ·· ومزق حشاى !

وشرد بى الذهن فتخيلت جسدها مسجى امامى بلا حراك ·

يا للمرأة الوفية الغفور ·· !

لقد لفظت حبها فأبقت على حبى ·· لقد سلبتها الحياة فمنحتنى الحياة ·· لقد أبيت عليها المغفرة فسمحت لى بالمغفرة · وأية مغفرة !

آه لو كان الموتى يفتدون ·· لافتديت قلامة ظفرها بكل عمرى !

امـــــــرأة...

لنجعلها أقصوصة رمزية ٠٠ حدثت فى قديم الزمان ٠٠ ولنجعل حوادثها تقع فى الصين أو فى الهند أو فى أى مكان ٠٠ لأن الزمان أو المكان ليس لهما تاثير يذكر فى مثل هذه القصة ٠٠ اذ لا شك أنها قد حدثت ، وتحدث ، وستحدث فى كل مكان ، وفى كل زمان ٠

ابطالها ثلاثة : زوج كهل ذو مال وجاه وسلطان ٠٠ وزوجة فتية ذات جمال وسحر وفتنة ٠٠ وتابع ــ صديق أو أجير أو ليكن من كان ــ فى ربيع العمر ومستهل الحياة ٠٠ يفيض منه الشباب ويمتلىء بالقوة ٠

هذا هو الثالوث ٠٠ الذى لا يكاد يلتقى فى هذه الحياة ــ وكثيرا ما يلتقى ــ حتى يكون قصة ذات وجهين ٠٠٠ أو ذات موضوعين : حب ٠٠ وخيانة ٠٠ حب بين الطرفين الثانى والثالث ٠٠ ينتج عنه خيانة للطرف الأول ٠

ولا أظن من العجب أن ينتج لقاء هذا الثالوث قصة ٠٠ وأن ينشأ عنه الحب وتقع الخيانة ٠٠ لأن هذا شىء لا يمكن ان يقع ، الا اذا كان يدهشنا ان نشعل ثقابا فى مادة ملتهبة ٠٠ فتضطرم النار ٠٠

ولكن العجيب حقا هو ألا يرى النار مشعلها ·· وأن يكون أجهل الناس بالقصة التى تجرى حوادثها تحت بصره هو بطلها الأول ·· او ضحيتها الأولى ·

وفى قصتنا هذه لا يبدو البطل ·· أو الضحية خيرا من سواه فى بقية القصص المماثلة ·· او على الأقل هذا ما كان يخيل لمن كان حوله من الناس ·· فهو فى غفلة عما يجرى بين زوجته الحسناء وتابعه الشاب ·· لا يكاد يحس شيئا مما تلوكه الألسن وتتشدق به الأفواه ·· ولا يكاد يشم رائحة لغدر او خديعة ·· فهو قرير العين ناعم البال ·· لا يظن بامرىء شرا ولا يتوجس خيفة ·

نقول ان هذا هو ما كان يخيل الى الناس ·· حتى حدث بعد ذلك ما اثبت انهم كانوا فى ظنهم جد مخطئين ·· جد واهمين ·

فى ذات يوم أعلن الرجل « الأمير » عزمه على الخروج الى الصيد ·· وأمر رجاله أن يشدوا رحالهم ويحزموا أمتعتهم وان يأخذوا معهم ما يحتاجونه من مؤن ومياه ·· اذ أن رحلتهم ستطول بعض الوقت ، فقد كان فى نيته أن يجول جولة طويلة وسط الغابات ·

وسار الركب يتوسطه الرجل ·· طويل القامة نحيف الجسد ·· قد وخط الشيب شعره ·· وأخذت التجاعيد مكانها من وجهه ، وعن يمينه زوجته الصبية الفاتنة ·· بشفتيها القرمزيتين الممتلئتين وأنفها الدقيق وبشرتها الشديدة النقاء ·· وجسدها الذى يحس الناظر اليه سخونته دون أن يمسه ·· والذى يشعر بدفئه دون حاجة منه لأن يحتويه بين ذراعيه ·· فهو أشبه بجمرة ملتهبة تشع بالحرارة والدفء ·· فهى امرأة قد لا نخطىء كثيرا اذا ما سميناها : « امرأة ساخنة » ·

وعن يساره سار تابعه الوفى الأمين ·· دقيق تقاطيع الوجه ·· حلو الملامح ، قوى الجسد ، متين البنيان ، وقد رمى ببصره الى الأفق

البعيد .. وان كان لا يفتأ يلقى بين آونة وأخرى بنظرات خاطفة الى وجه الرجل السعيد المغتبط :. ووجه المرأة القلق المتبرم .. الذى كان يبدو فيه واضحا مدى نفورها من الرحلة ومن وعثاء السفر .

وطال بهم الرحيل .. ومرت بضعة أيام والقافلة جادة فى السير .. والرجل كما هو .. يكسبو وجهه قناع من الرضى والغبطة ، وامرأته المخلصة عن يمينه ، وتابعه الوفى عن يساره . ممعنا فى السير لا تبدو عليه نية وقوف .. حتى بدأ القلق والتبرم الذى يلوح على المرأة ينقلب الى خوف حبيس يعتمل فى نفسها ، وتبدو بوادره فى تلك النظرات الحائرة التى تتبادلها مع الفتى من وراء ظهر الرجل .

وأخيرا .. وبعد أن عيل الصبر .. ونفد الاحتمال .. اشار الرجل بالوقوف .. فتنفست المرأة الصعداء ، وأحست بالكثير من الراحة .. الراحة الذهنية .. فقد أدركت أن الفرصة ستسنح لها بأن تفضى الى الفتى بتلك الهواجس .. التى اصطخبت فى صدرها طوال الطريق .. والتى منعها ظل الرجل القائم بينهما من أن تفضى اليه بشىء منها ...

وأمر الرجل بأن تنصب الخيام .. فوضعت خيمة له فى الوسط ، وخيمة لامرأته على يمينها .. وأخرى لتابعه على اليسار .. أما بقية الحاشية فقد وضعت خيامها على مسافة بعيدة بعض الشىء .

وكان الظلام قد أقبل .. فأمر الرجل بأن يذهب كل الى خيمته ليستريحوا .. ثم يبدأوا الصيد فى الصباح .

واستقر القوم فى خيامهم ، وأغمضوا جفونهم وراحوا فى سبات عميق .. وخيم على المكان سكون الليل .. حتى تنفس الصبح .. فاذا بأصوات تشق أجواز الفضاء ، واذا بالمرأة قد أقبلت على زوجها فزعة مرتعدة ، وهى تصيح فى صوت مرتجف :

- لقد قضى علينا .. لقد أوقع بنا اللصوص الخونة .. لقد ذهب الرجال جميعا حاملين معهم كل شيء .. وتركونا بلا ماء ولا غذاء .. تركونا لنلقى حتفنا في هذه البقعة المقفرة الموحشة .. لقد أخذوا معهم كل شيء .

وفي نفس اللحظة اقبل الفتى صائحا في دهش وفزع :

- يا سيدي لقد تآمر علينا الرجال .. لقد فروا في جنح الليل .. وتركونا ليفتك بنا الظمأ والسغب .

وقام الكهل من فراشه ببطء وأشار اليهما آمرا أن يكفا عن الصياح وقال في هدوء : « لم يفر الرجال ! انا الذي أمرتهم بالعودة ! » .

وبدرت من الاثنين صيحة دهش ، وفغر كل منهما فاه ، وحملق بعينيه متسائلا . وأردف الرجل يقول بلهجته الهادئة :

- ان هناك أمرا أريد تسويته بيننا . ولست أرغب أن يبلغ آذان الرجال منه شيء .

وفهمت المرأة . وفهم الفتى .. وشحب وجهاهما شحوبا شديدا .. واستمر الرجل يقول :

- سأخرج عن التلميح الى التصريح . وسأفصح لكما كل الافصاح .. ان المرجفين يتحدثون عن اشياء شائنة تجري خلف ظهري .. ويقولون ان امرأتي قد خانت العهد ولوثت بالأقذار ذيلها وذيلي .. أترياني في قولهم حقا ؟

وأجابت المرأة في صوت مبحوح وأنفاس مبهورة :

- انهم في قولهم لكاذبون .. أقسم انها أراجيف باطلة كاذبة . وأنها زور وبهتان .

وحول الرجل نظره الى الفتى قائلا :

- وأنت .. ما قولك ؟

وصمت هذا برهة قبل أن يجيب فى صوت خفيض :

ـ لا فائدة من الانكار ·· لقد حدث ذلك الشىء الذى دار بخلدك ، والذى تحدثت عنه الناس ·· لقد حدثت تلك الأشياء التى وصفتها بأنها شائنة ·· وأنها خيانة للعهد وتلويث بالأقذار ، وان كنت أرى أن الألفاظ التى استعملتها ليست ملائمة تماما ·· ولكن ماذا تنبىء الألفاظ ·· وماذا تستطع أن تغير من حقيقة الواقع ·· ما دامت الأشياء قد حدثت فعلا ·· ولكنى اود أن اقول لك ان من الخطأ أن تلقى تبعة ما حدث عليها هى ·· أو على أنا ·· لقد كنا مسوقين مقودين ·· مسلوبى الارادة ·· فاقدى التصرف ·· حمل القدر لومك اذا أردت اللوم ·· فقد شدنا بوثاق ودفعنا دفعا الى هــذا المصير ·· لقد وهبنا للحب ·· وكان من العسير علينا أن نرد الهبة ·

واجاب الرجل بصوت يقطر مرارة :

ـ هبة القدر ·· لقد دفعت أنا ثمنها غاليا ·· لقد أعطاكما القدر هبة من حســابى الخاص · ولكن الم أهب لك أنا من قبل كل ما استطعت ! ألم أطعمك من جوع وأؤمنك من خوف ! ألم انتزعك من براثن الشقاء لأجعلك لى ابنا حبيبا وتابعا وفيا ! ؟ لشد ما كفرت بنعمتى وكنت من الجاحدين · ما اشبهك معى بتلك الأفعى التى كان منقذها أول من لدغ منها ·

ثم التفت الى المرأة موجها اليها الحديث فى سخرية أليمة :

ـ وأنت ·· انت ايتها الطاهرة النقية ·· المخلصة الوفية · هل تمتعت أيضا بهبة القدر ؟ · أو لم يكفك ما وهبت لك من عطف وحب ، وما هيأته لك من حياة ناعمة راضية هانئة ؟

ثم اشتدت لهجته وبدت فيها رنة غضب مكتوم حين أردف قائلا :

ـ ولكن ما لنا وللتأنيب والتثريب ، وماذا يجدينا الكلام بعد أن وقعت الواقعة · والكلام لم يعد وسيلة للعلاج لأن علاج الفعل يجب

أن يكون فعلا مثله ·· أجل ليس أمامنا الا أن نمحو العار ونغسل الخطيئة ·· ليس أمامنا الا أن نتذكر قول القائل :

« خير للانسان أن يموت شريفا من أن يعيش بلا شرف » ·

وبدأ الفزع على المرأة وهمست فى نبرات مرتجفة :

ـ لست ·· لست تنوى قتلى ؟

وتقدم الفتى بخطوات ثابتة · · وقال :

ـ اذا كان لا بد لك من أن تريق دما على جوانب شرفك الرفيع حتى يسلم من الاذى ·· فليكن ذلك الدم دمى · واذا كانت هناك جريرة فضعها فى عنقى واتركها هى ·· لأنها لا ذنب لها ·

وهز الرجل رأسه ببطء وقال بصوت ملىء باليأس :

ـ بل الذنب كله ذنبها ·· لقد كانت هى منبع الشر وأصل الخطيئة · وهى التى يجب أن تستأصل ·· أما أنت فسأضع مصيرك بين يديها ·· انها هى التى ستقرر موتك أو حياتك ·

وحملق الاثنان فيه بدهش وذهول ·· ولم يفهما ما يعنيه بقوله ·· واختفى برهة ·· ثم عاد وقد حمل فى يده جرة ماء ، ووجه الحديث الى المرأة قائلا :

ـ هذا هو كل ما تبقى لنا من الماء ، وهو يكفى لأن ينقذ واحدا منا حتى يعود الى المدينة ·· أما الباقيان فلن يكون أمامهما الا الموت ظمأ فى هذه البقعة المقفرة ، وستكونين أنت أحدهما ، أما الثانى فعليك أن تختاريه ·· أجل ! أعطى الجرة من تشائين ·· أعطيه الجرة فيذهب هو وأموت أنا بجوارك ، أو أعطنيها فأعود أنا وأترككما لتموتا سويا ·

وبدا على المرأة ذهول وتحجرت عيناها فى مقلتيها وهى تحملق فى الجرة ، وبدت شفتاها جافتين باهتتين ولم تنبس ببنت شفة !

واستمر الرجل فى قوله :

ـ فكرى جيدا ·· انك تملكين فى يدك حياة أحدنا ، أنا لا أطلب منك أن تجيبى الآن ، بل سأعطيك فرصة للتفكير ·· عودى الآن الى خيمتك ، وسننتظر حتى تهبط الشمس ، وعليك حينئذ أن تقررى ما تشائين ·

وعادت المرأة الى خيمتها وقد حملت الجرة ، وبدت فى مشيتها مهدمة محطمة ، وسار الرجل والفتى كل الى خيمته ·

ومرت الساعات فى سكون مطبق مخيف ، وجلس الفتى وقد دفن وجهه بين يديه واستغرق فى تفكير عميق ·· ليتها تعطى الرجل الجرة ·· حتى يموت هو بجوارها ·· ليتها تفعل ذلك فليس أحب الى نفسه من أن يموت معها ·· ولكنه كان يحس أنها ستحاول انقاذه ·· وكان يكره ذلك ·· لأن الحياة بدونها خير منها الموت ·· على أية حال ان خير ما يفعله لو أعطته الجرة هو أن يحطمها أمامها ، ويبقى ليموت معها ·

وأخيرا بدا قرص الشمس الذهبى وقد لامس حافة الأفق ، وأخذ يهبط رويدا رويدا ، حتى اختفى تماما ·· وقام الفتى بخطى متثاقلة واتجه الى خيمة الرجل ·· ووقف كلاهما ينتظر المصير الذى ستحكم به المرأة ·

وطالت وقفتهما ، والمرأة ما زالت فى خبائها ·· فتقدم الاثنان ·· حتى وصلا الى الخباء ، وارتفع صوتاهما يناديان المرأة ، ودفع كل منهما برأسه الى الداخل ·· يقلب بصره ذات اليمين وذات اليسار ، وبدرت من الفتى صيحة عجب ، فقد كان الخباء خاليا ! ·

وفى مؤخرة الخباء بدا طرف منه مرفوعا وظهرت على الأرض آثار زحف المرأة الى خارجه ·· ولم يتمالك الفتى أن صاح فى دهش شديد :

ـ لقد فرت ! لقد أخذت هى الجرة ! لقد وهبت نفسها الحياة !

لقد سخرت منا كلينا !

ولم يبد على الرجل أى دهش . بل نظر الى الفتى فى كثير من الازدراء ، وأجابه بهدوء ورزانة :

ـ عليك نفسك ! لقد كنت أعلم انها ستفعل ما فعلت ٠ ان المرأة انانية ٠٠ انها تحب نفسها اكثر مما تحب اى رجل ٠ اما حبها لأى رجل فيختلف بقدر ما يعطيها من المتعة ٠٠ متعة المال ، أو متعة الجسد ، أو متعة القلب ٠٠ ان المرأة تحب نفسها أولا ٠٠ ثم تحب من الرجال اقدرهم على ارضاء نفسها ٠٠٠

وأطرق الفتى برأسه الى الارض ٠ ثم تساءل بصوت خفيض يحمل فى نبراته الأسى والألم :

ـ أكنت تعلم أنها ستفر بالجرة ثم تركتها تفر ٠٠ أتركتها تتسلل بحياتها فوق جثتينا ؟ !

ـ ليس فوق جثتينا ٠٠ بل تحت اقدامنا ٠٠ كما تتسلل حشرة ضئيلة حقيرة ٠٠ اننا لن نموت عطشا ! لأن الرجال لم يذهبوا كما ادعيت الى غير عودة ٠٠ بل سيعودون فى الصباح ، وسنبدأ الصيد من الغد ٠

وصمت الرجل برهة ثم أردف :

ـ أتراك قد عرفت المرأة ؟ أتراها تستحق أن تفتديها بحياتك كما حاولت أن تفعل ٠٠ أتراها تستحق أن تكفر بنعمتى من أجلها ؟ أم عرفت أنها مخلوق انانى لا يحب سوى نفسه ؟

رقم الايداع ٨٦/٥٩٣٦

To: www.al-mostafa.com